

هذه الرواية

- تعتبر رواية دون كيشوت إحدى روائع الأدب العالمي الخالدة على الدهر .
- يقرأ دون كيشوت قصص الفروسية ويعجب بمآثر الفرسان الأبطال ، فيقرر أن يحيا كحياتهم ، فينطلق على جواده ومعه تابع له على حمار ، بحثاً عن المغامرات .
- ولكن أية مغامرات كانت مغامراته !! كان إذا رأى الطواحين ظنها فرساناً ، فحطمها . واذا رأى قطعان الغنم حسبها جنوداً فهاجمها ، وهكذا ، حتى أصبحنا اليوم نصف كل مغامرة وهمية بالقول انها « مغامرة دون كيشوتية » !!

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



تأليف
ميكال دي سرفنتس

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢-٢٢٢٤٧-٢٩١٠٤٧

الطبعة الاولى ١٩٧٥

الطبعة الخامسة

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩

الجزء الأول

١ . دون كيشوت يُرسم فارساً

في قريةٍ من قرى مقاطعةِ « لامانش » كان يعيشُ نبيلٌ يمتلكُ رمحاً عتيقاً وتُرساً صَدِئاً وحصاناً أعجف ، كما كان لديه كلبٌ سلوقيٌّ للصّيد .

كان هذا النبيلُ ذا دَخْلٍ متواضع ، إذ كان الطعامُ وحدَه يأتي على ثلاثةِ أرباعِ هذا الدَخْل . والطعامُ نفسه لا يتعدّى اللحمَ المسلوق ــ لحمَ البقرِ في الغالب ــ عند الغَداء ، والخلَّ مع الزيت مساءً ، والبيضَ المقليَّ في أيام السبت ، أما في الآحاد فقد تُهَيَّأ بعضُ أفراخ الحمام . وكان يستعين بباقي دَخْله لشراءِ ملابسَ فاخرة لأيام الأعياد ، وهي تَشْملُ سُتْرةً من الجوخ الممتاز وجَزْمةً أسفلُها كأعلاها من الفرو ، كما يستخدمُهُ في شراء ثوبٍ من الجوخ الرديء ، لأيّام العمل .

وكانت أُسْرتُه تتألّف من قيّمة على المنزل تخطّت الأربعين من العمر ، وابنةِ أخٍ لم تَبلغْ بعدُ العشرين ، وخادمٍ يتولّى كافّة الأعمال في الدار والإسْطَبْلِ والحقل ، ويقوم بقَطْف العنب كلّما أقبلَ موعدُ القطاف .

أما فارسُنا نفسُهُ فيناهِزُ الخمسين . وهو قويُّ البِنْيَةِ صُلْبُ العود ضامرُ الوجه . وكان من عادتِهِ أن ينهض مبكّراً . وقد اشتُهِرَ عنه أنه صيّادٌ ماهر . ويقال إنه كان يلقّبُ بكِيكْسادا .

في أوقاتِ فَراغِهِ كان يقرأ كُتُبَ الفُروسيّة . وكان يُقبِلُ عليها بشَغَفٍ بالغ ينسى معه الصّيدَ كما يغفَلُ عن إدارةِ أملاكه . ولـكنْ كان يشتدُّ النِزاعُ بينه وبين كاهن القرية حول بطولةِ كلٍّ من « بالمران » الإنكليزيّ و« أماليس » الغاليّ (الفرنسي) ، أيّهما أشدُّ بأساً وأقوى شكيمةً . ولما كانت هذه الأفكارُ مُسْتَحوذةً على عقله ، فقد كان يقضي أيّامَه ولياليَه في اجترارِها . وقد أدّتْ به تلك القراءاتُ المتواصلَةُ إلى جانبِ السّهَرِ الطويلِ عليها إلى حالةٍ من جفافِ الدّماغ ، فَفَقَدَ معها المقدِرَةَ على الحُكْمِ وإعطاءِ الآراء الصائبة .

في تلك المرحلة خُيِّل إليه أن لا شيءَ أجملُ من إحياءِ الفُروسيّةِ التائهة القديمة ، بحيث يقومُ ، هو نفسُهُ بِدَوْرِ الفرسان المغامرين القُدامى ، فيتسلّحُ كما



دون كيشوت يطالع .....

كانوا يتسلّحون ويركبُ حصانَه ، ويضربُ في الآفاق ،
ساعياً وراءَ المغامرات ، مقوّماً أخطاءَ الناس ، مقتصّاً
من الظالمين والمُعتَدين . وأولُ ما فعله هو أنه أخرجَ
أسلحةً ظلّت مُلقاةً في إحدى الزوايا ، من أيّام والدِ
جدّه ، وقد علاها الصدأ . ومن ثُمَّ عمَدَ إلى تنظيفها
وتقويمها على قدْرِ الإمكان . ولكنّه لاحظَ ، بكثير
من الألم ، أن الخوذةَ لم يَبْقَ منها سوى نصفها ،
فما كان منه إلا أن استعاض عن الجزءِ المفقودِ بقطعة
من الورق المقوّى . ولما اطمأنّ إلى اختراعه ذاك ، اعتبَرَ
أنه أصبح مُسْتَكمِلَ التسلّح .

هنالك توجّهَ لفحصِ حصانه . وبالرّغمِ من أن
هذا الحيوانَ المسكينَ لم يكن سوى هيكلٍ عظْميّ حيّ ،
فقد بدا لعينَيْه أشدَّ وأنشطَ من جوادِ الإسكندر
الأكبر . وظلّ يفكّرُ طوالَ أربعة أيّامٍ ليختارَ له
الاسمَ المناسب . وبعد أن استعرضَ كثيراً من الأسماء ،
التي كان يتبنّاها ثمّ لا يلبثُ أن يستبعدَها ، وقعَ
اختيارُه على اسم «روسينانت»[1] ، الذي وجدَ أنه موسيقيّ
الوقعِ جميلُ المَبْنى والمعنى . ولقد بلغ من رضاه
عن نفسهِ — لأنه وجد هذا الاسمَ الرائعَ — أن قرّر التفتيش

---

١ اصبحت هذه الكلمة تعني الفرس الرديء الكسول الذي يذكر بفرس دون كيشوت .

عن اسمٍ يُطلقهُ على نفسه . وكلّفَه هذا العملُ أربعةَ
أيّامٍ أخرى ، أزْمعَ في نهايتها أن يدعوَ نفسه «دون كيشوت» .
وحتى يحذوَ حذْوَ « أماديس دي غول » جعَلَ اسمه
« دون كيشوت دي لامانش » ، وذلك لكي يُشْرِكَ
بلَدَه في المجد الذي سيبنيه .

ولكنْ ما زال يُعْوِزُه الشيءُ الأساسي :

وهو الحبّ .. ففارسٌ بلا حبٍّ كشجَرة بلا
ثمرٍ ولا أوراق .. إنه أشبَهُ بجسَدٍ خالٍ من الرّوح .
ويقالُ إنه كان يحبّ ، فيما مضى ، فتاةً قرَويّةً جميلةً ،
من إحدي المناطقِ المجاورة ، لم تَعلمْ قطُّ بما كان
يحملهُ لها من عاطفة . فكانت هي التي اختارَها لتبوّئها
عرْشَ الفؤاد . وكانت تُدعى « الدونزا لورنزو » ،
فشاءَ أن يُطلِقَ عليها اسماً أنسبَ لها بوَصْفِها أميرةً ،
فدعاها « دولسينيه دوتوبازو » .

وبعد أن أصبحَ بطلُنا مزوّداً بكلّ ما ينبغي ، تسلّحَ
بأسلحتِه ، دون أن يُخبرَ أحداً ، وامتطى « روسينانت »
ثم خرَجَ من بابٍ خلفيّ ، والرمحُ في يدِه ، والتّرسُ
في ذراعه ، والقِناعُ الكرتونيّ مُرْخىً على وجهه .
وفي هذه اللحظة خطَرَ له خاطرٌ أقلقَهُ : ذلك أنه لم
يحمل السلاحَ بوصْفِه فارساً ، إذنْ هو لا يستطيعُ أن
يحاربَ قبلَ أن ينالَ رُتبةَ فارسٍ ، ولكنّه عادَ فقالَ

في نفسه إنه سيستعين بأول رجل يصادفه ، كما يمنحه رتبة الفروسية . وهكذا اطمأنت نفسه واستعاد الهدوء والسكينة فتابع طريقه ، تاركاً فرسه « روسينانت » يسير على هواه . وطال به المسير حتى قرب النهار من نهايته دون أن تسنح له فرصة يبدي فيها ما انطوى عليه من جرأة وإقدام ، فأسف لذلك كل الأسف .

وشاءت له الصدف أن يرى فتاتين واقفتين على باب نزل . ولما كان يرى ، في كل شيء تقع عليه عيناه ، ما قرأه في الروايات ، فإنه ، ما بصر بالفندق الصغير ، حتى تجلى له قصراً فخماً يحيط به الخندق المعتاد ، ويبدو في واجهته الباب المرفوع ، وتنهض أربعة أبراج على جوانبه الأربعة ، بفتحاتها التي تطلق منها السهام ، وكل ذلك منطبق تماماً على ما قرأه في القصص عن أوصاف القلاع القديمة . أما الفتاتان فقد ظهرتا له وكأنهما أميرتان خرجتا تستنشقان الأنسام الرطبة أمام قصرهما ، فتقدم منهما . فلما رأتا قناع الكرتون على ذلك الوجه الأعجف الأغبر ، أغرقتا في الضحك . وكاد دون كيشوت يطلق لغضبه العنان ، لولا أن أقبل صاحب النزل ، الذي خشي أن يحدث ما لا تحمد عقباه ، فآثر أن يأخذ ذلك الغريب باللين .. فقال له

— « أيها السيد الفارس ! إذا كنت ، سيادتك ، تريد أن تبيت هنا ، فلسوف تجد لدينا كل ما تطلبه ، فيما عدا السرير ، فهو الشيء الوحيد الذي لا نملكه ! » .

فسارع دون كيشوت إلى القول رداً على كلام الفندقي :

— « أيها السيد رب القصر ! أنا لا أهتم لهذه الأمور ، فكل ما تقدمه أتلقاه بالرضا ، لأن سلاحي هو حليتي ، وفي المعارك راحتي وسعادتي ! » .

ومضى الفندقي بالفرس إلى الإصطبل ، وقد داخله كثير من الدهش وهو يسمع دون كيشوت يدعوه برب القصر . ولما عاد وجد هذا منهمكاً بخلع أسلحته بمعونة الفتاتين ، اللتين نزعتا عنه درعه ، ولكنهما فشلتا في تحرير رأسه وعنقه من الخوذة والواقية ؛ ذلك أن دون كيشوت كان قد ربطهما ببعضهما ربطاً محكماً بواسطة أشرطة دقيقة خضراء ، فلم يكن في الإمكان فصلهما إلا بقص العقد ، وهو أمر عارضه دون كيشوت بكل قوته . ولكنه عندما جلس إلى المائدة لم يتمكن من رفع الطعام إلى فمه ، لأن واقية العنق كانت تحول دون ذلك ، فاضطر إلى الاستعانة بإحدى الفتاتين ، التي تلطفت وقامت بمهمة

إطعامه . وواجهَ مُشكلةً ثانيةً عندما أرادَ أن يشربَ ، لأن قِناعَ الكرتون كان يقفُ دونَ وصولِ الكأسِ إلى فمه ، لولا أن الفندقيَّ أسعفَهُ بقصبةٍ طويلةٍ خرقها له عند العُقدَ ، فراح يمتصُّ بها النبيذَ من الكأس . وكان بطلُنا يتحمّلُ كلَّ هذا العناءَ بطيبِ خاطرٍ ، حتى لا يُضحّيَ بشرائطه الخضراء . ولكنَّ الذي كان يُحزنُهُ حقاً هو أنه لم يتلقَّ لقبَ الفروسيةِ حتى تلك اللحظة .

ولما لم يَعُدْ يستطيعُ احتمالَ العذابِ الذي تُسبّبُهُ له تلك الفكرةُ ، فقد توجّهَ إلى صاحبِ الفُندقِ وصاحَ وهو يركعُ أمامَه :

— « أيها الفارسُ العظيم ! أتوسّلُ إليك أن تتعطّفَ فتُوليَني جميلاً لا أنساه لك ! والذي أطلبُه منك لا يؤدّي إلا إلى مَجْدِك وإلى خيرِ هذا العالم ، وهو أن تسمحَ لي أن أقومَ هذا المساءَ بإحياء ليلةِ السّلاحِ في كنيسةِ قصرِك ، وأن تمنحَني فجرَ الغدِ رُتبةَ الفروسيّة ، كيما أتمكّنَ ، بعدَ ذلك ، من الطّوافِ في أركانِ العالَمِ الأربعةِ لمُساعدةِ الضّعفاء والمظلومين طبقاً لتقاليدِ الفُرسانِ الجوّالين ، الذين أتحرّقُ شوقاً للانضمامِ إليهم . »

ولم يكن الفندقيُّ عارياً من رُوحِ الفُكاهةِ . وقد

تأكّدَ له ، بعد أن سَمِعَ هذا الكلامَ من دون كيشوت ، أن الرجُلَ مجنونٌ دون أيِّ ريْبٍ ، ولكي يواصِلَ امتحانَهُ له ، ردّ عليه بكلِّ جِدّيّةٍ قائلاً :

— « أيّها السيّدُ ! إن أمنيّةً نبيلةً كهذه لَخليقةٌ بطَبْعِكَ الطاهرِ الكريم . غير أنّه ليست لديّ كنيسةٌ في الآونة الحاضرة ، فلقد هدَمْتُ كنيستي ، منذ عَهْدٍ قريب ، لأبْتَنيَ مكانها كنيسةً أجملَ منها . ولكنّنا نَستطيعُ الاستعاضةَ عن الكنيسةِ بالفِناء ، ففنائي المتّسعُ يناسِبُكَ تمامَ المناسَبةِ لقضاءِ ليلةِ السّلاحِ فيه ، وغداةَ غدٍ نقومُ بالمراسمِ الأُخرى ، وبعد ذلك تُصبحُ فارساً لا يضاهيه فارسٌ في العالم ! »

ولما كان دون كيشوت متلهّفاً على الانتهاءِ من هذه المُهمّةِ الخطيرة ، فقد أسْرَعَ إلى أسلحتِه يحملُها إلى فِناءِ النُّزُل . وإلى جانبِ البئرِ وَضَعَ الأسلحةَ في الحوضِ الخشبيِّ ، الذي تشربُ منه البهائم ، محتفظاً برُمحِهِ وتُرْسه ، وراحَ يتمشّى جيئةً وذَهاباً أمامَ البئر .

وكان ينزلُ في الفُندقِ أحدُ المُكارين ، فجاءَ ببِغاله ليَسْقيَها ، وأقبلَ على الحوض يُخرِجُ ما وُضِعَ فيه من أسلحة ، فصاحَ عليه دون كيشوت بصوتٍ مُرعِبٍ :

« حاذِرْ ، أيّها الفارسُ الدّعيُّ ، أن تمسَّ هذه الأسلحةَ ، وإلا فإن الموتَ سيكونُ في انتظارِك ،

جزاءَ اجترائكَ ، كائناً من تكون ! »

ولكنّ البغّالَ ، لسوء حظّه ، لم يحفلْ بكلامِ بطلِنا ، فأخذَ الأسلحةَ وألقاها خارجَ الحوض . فما كان من دون كيشوت إلا أن رفعَ رُمحَهُ بكلتا يديه وأهوى به على رأسِ الرجُلِ فسقطَ على الأرضِ دون حراك .

بعد هذا أعادَ دون كيشوت الأسلحةَ إلى مكانها من الحوضِ واستأنفَ سَعْيَهُ أمامَ البئر ، كأنْ لمْ يكُنْ شيءٌ .

ولم يَمْضِ طويلُ وقتٍ حتى أقبلَ بغّالٌ آخرُ على البئرِ ليَسْقيَ دوابّه ، وهو خالي الذهنِ مما أصابَ زَميلَهُ منذ قليل ، فرفَعَ الأسلحةَ من الحوض ، وإذا بدون كيشوت يَهْجُمُ عليه ويكسِرُ الرُّمحَ على رأسهِ ويَشُجُّهُ .

هنالك هرَعَ صاحبُ النُّزُلِ وكلّ مَنْ فيه ليتبيّنوا جليّةَ الأمرِ ، فصاحَ دون كيشوت ، وهو يحمي نفسَه بالمِجَنّ :

— « يا سيّدةَ الجمالِ ، يا سنَدَ رُوحي وبأسَها ! ألهِبي قِوايَ بنَظْرةٍ من نَظَراتِكِ ، في هذه المُغامرةِ الرّهيبةِ ! » .

ولما راى الفندقيُّ الأمورَ تَسوءُ على هذا النّحْوِ ، ورأى أنه لم يَعُدْ في وسْعِهِ أن يتفكّهَ بمثْلِ ذلك ، عزَمَ على الانتهاءِ من تلك العمليّةِ بأسْرَعِ ما يستطيعُ. فأعلنَ لنزيلِهِ استعدادَهُ لإجراءِ مراسِمِ الرّسْمِ . ثم مضى عنه ، فأخذَ سجلاً كان يدوّنُ فيه حساباتِ النُّزلِ ومؤونةِ الإسطبْلِ من العلَفِ ، وعاد يحملُ الكتابَ بين يديْه ، وقد سارَ وراءَهُ صبيٌّ ، يحملُ عقِبَ شمعةٍ ، وفي أثرِهِ الفتاتان اللتان مرّ ذِكرُهما .

ولما أصبح في مواجهةِ دون كيشوت ، أركعَهُ أمامَه ، ثم راحَ يُغَمْغِمُ كلاماً ، وهو ينظرُ في سجلّه . ورفَعَ بعد ذلك السّيْفَ بيدِه وضربَ بصفْحته على كتِفيْ دون كيشوت . وتولّتْ إحدى الفتاتين تقليدَ البطَلِ سيْفَهُ ، بينما ربَطتْ له الأخرى المِهمازَيْن على كاحليْه .

وما إنِ انتهتْ تلكَ المراسمُ حتى أسرعَ الفارسُ الجديدُ إلى « روسينانت» فأسْرَجَهُ ، ثم امتَطاه ، وأقبلَ على الفُندُقيِّ يحتَضِنُهُ وهو على ظهر الحصان . فردّ عليهِ هذا باختصارٍ ولم يطالبْهُ بأيِّ شيءٍ ، لأنه اعتبرَ أن مجرّدَ رَحيلهِ عنه كافٍ لتعويضه ، وقد شعَرَ بالفرَحِ عندما رآه يمضي .

* * *

٢ . انقاذ مظلوم

كانت أشعةُ الفجرِ قد بدأتْ تنتشرُ عندما استأنفَ دون كيشوت مسيرَهُ عجلانَ لطلبِ مغامرات جديدة . غير أنه قررَ أن يعودَ إلى دارِهِ ، قبل بدءِ تلكَ الرحلةِ الطويلة، للتزوُّدِ بالمالِ وحملِ بعضِ الملابسِ الداخليّة ، والتفتيشِ عن شخصٍ يتّخذُهُ تابعاً له . وكان يفكّرُ في جارٍ له ، يعملُ في الأرض ، وهو ربُّ أسرةٍ ، فقيرُ الحال . وقد قرّ في نفسه سلفاً أن هذا الفلاحَ مناسبٌ تماماً للقيامِ بدورِ التابعِ الجوّال . من أجلِ هذه الفكرةِ اتّخذَ طريقَهُ نحو قريتِهِ . ولعلَّ « روسينانت » قد أدركَ ذلك فجرى به في خفّةٍ بالغة ، حتى لكأنَّ قوائمَهُ لا تكادُ تلمسُ الأرض .

وفجأةً ، وبينما كان دون كيشوت يجتازُ إحدى الغاباتِ إذا به يسمعُ أصواتَ توجّعٍ وأنينٍ ، فقال في نفسِهِ :

— « أوه ! يا لها من سعادة ! فلا شكَّ في أن الله يريدُ بي الخيرَ والرُّشدَ إذ يُقدِّمُ لي الفرصةَ كيما أقومَ بأعزّ وأكرمِ واجبٍ من واجباتِ الفرسان ، فأصواتُ الاستغاثةِ هذه صادرةٌ حتماً عن إنسانٍ ضعيفٍ يتلقّى التعذيبَ ، وعليَّ أنا نجدتُهُ وإنقاذُهُ » .

وفي الحال لوى عنانَ فرسِهِ واتّجهَ نحو الصوت . فوجدَ في ظاهرِ الغابةِ فرساً مربوطةً إلى إحدى الأشجار ، وعلى مبعدةٍ منها فتىً ، في الخامسةَ أو السادسةَ عشرةَ ، مكشوفُ الصدرِ ، وقد شُدَّ إلى سنديانةٍ شدّاً محكماً ، ووقفَ أمامَهُ فلاحٌ ، طويلُ القامةِ شديدُ البنيةِ ، يحملُ بيدِهِ سوطاً يجلدُهُ به ومع كلِّ جلدةٍ كان يُلقي ملامةً أو نصيحة ، والولدُ يتوجّعُ ويستعطفُ :

— « أستحلفُكَ باللهِ ، يا سيّدي ، أن تصفحَ عني ، هذه المرّة .. لن أُهمِلَ القطيعَ بعد اليوم .. سأهتمُّ به في المستقبلِ ! »

ولما رأى دون كيشوت هذا المشهدَ خاطبَ الفلاحَ بصوتٍ يملأهُ الغضبُ ، قائلاً :

— « أيها الفارسُ الشرسُ الجبان ! إركبْ فرسَكَ وخذْ رمحَكَ ! سأريكَ أن ما تقومُ به غيرُ لائقٍ برجلِ حربٍ شجاعٍ ! »

فأجابَهُ الفلاحُ بخضوع :

— « مولاي الفارسُ ! إن هذا الغلامَ هو خادمي ، وأنا أدفعُ له أجراً ليعتنيَ بقطيعي . ولكنْ بلغَ من إهمالِهِ لعملِهِ أنني أفقدُ كلَّ يومٍ عدداً من شياهي (جمع شاة) ، وفوق هذا هو يجترئُ على القولِ

بأني أتهمه زوراً كيلا أدفع له أجره ، وأنا أقسم بالله وبحياتي على أنه كاذب ! »

فصاح دون كيشوت :

— « أتكذبه أمامي ؟ ! وحق الشمس ، التي تنيرني ، لا أدري لم لا تخرق هذه الحربة جسدك في الحال ! هيا ، فك هذا الغلام ، وادفع إليه أجره فوراً ، وإلا قضيت عليك ! »

فخفض الفلاح رأسه وراح يفك الولد دون كلام . فسأل دون كيشوت الراعي الصغير كم له في ذمة سيده ، فأجاب :

— « تسعة أشهر ، على أساس سبعة ريالات في الشهر ! » .

فأجرى فارسنا حساب الأشهر التسعة ، فوجد أنه يبلغ ثلاثة وستين ريالاً ، فأمر الفلاح بأن يدفعها إلى غلامه على الفور ، إن كان لا يريد أن يموت . فرد الفلاح بذلة ، قائلاً :

— « إنني لا أحمل مالاً ، فليتبعني « أندريه » إلى الدار لأدفع إليه المبلغ » .

فصاح الغلام :

— « كفاني الله شر مرافقته .. إنه لا بد أن

يسلخني ، عندما ينفرد بي ، كما سلخ القديس « بارتيليمي » ! » .

قال البطل :

— « كلا ! لن يفعل هذا ! وضمان ذلك هو احترامه لي ، وأنا سأطلقه إن هو أقسم برتبة الفروسية التي حصل عليها ، ولا بد عندها أن يفيك حقك ! »

فقال أندريه :

— « ولكنه ، يا سيدي ، لم يحصل قط على رتبة من هذا النوع ، إنه جان هالدودو ، الغني الذي يقطن بالقرب من « كنتار » ..

فقال دون كيشوت :

— « لا بأس ! فمن الممكن أن يكون المرء اسمه هالدودو ويكون نبيلاً ! » ثم التفت إلى الفلاح وأضاف : « إياك أن تنكث بالعهد .. إسمع نصيحتي ، وإلا فإنني أعرف كيف أصل إليك ، حتى ولو استخفيت كما يستخفي « الجرذون » (العظاية) ! .. ولكن من حقك أن تعرف من الذي يصدر إليك هذا الأمر .. فاعلم أنني أنا البطل المغوار دون كيشوت دي لامانش ، نصير الضعفاء ومقوم الأخطاء ! أستودعك الله ! لا تنس القسم الذي أقسمته ! »

وبعد أن ألقى هذه الكلمات واصل سيره مبتعداً عن

الفلاّح، الذي أتبعَهُ نظرَه حتى اختفى ، فأقبل على خادمِه يقول له :

— « تعالَ هنا يا بنيّ! عليّ أن أسارعَ إلى وفاءِ دَينِك كما أمر هذا المصلح ! » .

وسرعان ما عادَ إلى ربْطه بالسنديانة ، وراح يَكيلُ له الضربَ بأقسى مما كان يفعل ، وهو يقول :

— « أدْعُ الآنَ إليك مُصْلِحَك ، أيها السيد أندريه ، لنرى كيف يدفعُ عنك الأذى في هذه المرّة ! »

وبعد أن اشتفى منه ، فكّ وثاقَه ، وسرّحه وهو يضحك ، بينما كان الولدُ يبكي وينتحبُ ويُقسم على الذهابِ إلى دون كيشوت ليشكوَه إليه .

في هذا الوقتِ كان بطلُنا يتابعُ سيرَه ، وهو في غاية الرِّضا عن نفسه من أجْلِ هذه البداية الميمونَة للمهمّة النبيلةِ التي نَذَرَ لها حياتَه . وكان يحدّث نفسه بصوت منخفض قائلاً :

— « إفرحي ، يا دولسينيه دوتوبازو ، يا أجملَ من كلّ جميلة ، بما هيّأتْه لك الحياة ! تمتّعي بهذه السعادة الواسعة .. سعادة أن يكونَ لك هذا الفارسُ الذي لا يُقهَر .. هذا الفارسُ الذي لم يحمل السيفَ إلا منذ الأمس ، ومع ذلك أعطى العالَمَ درساً في العدالة ، ودافعَ عن الضعفِ ضدّ القوّةِ الظالمة . وأنقذَ غلاماً

مسكيناً من يدِ رجلٍ همجيٍّ لا يرحم ! »

ولقد طابَ له الحديثُ مع نفسه ، حتى إنه كان على استعدادٍ أن تمضيَ في خطابه دون توقّف ، لولا أنه رأى الطريقَ تتفرّعُ إلى أربعةِ فروع ، فتوقّف وتركَ لفرَسه أن يختارَ ، فلم يتردّدْ في سُلوكِ الطريق المؤدّية إلى بَيْته ومَعْلَفِه .

ولكنّ دون كيشوت لم يقطعْ ميلَين اثنين حتى رأى جماعةً مُقْبلةً عليه ، وهي على ظهرِ الخيول . كان هؤلاء الرجالُ تجّاراً من مدينة طُليطلة ، وكانوا في طريقهم إلى مدينة « مُرْسِيَة » لشراءِ كميّةٍ من الحرير . كانوا ستّةً ، يرفعُ كلٌّ منهم فوق رأسه مظلّةً كبيرةً ، ليدفعَ بها حرَّ الشمس عن رأسه . وكان يسير خلفهم أربعةُ خدمٍ يركبون البغال ، وثلاثةُ غلمانٍ ، للعنايةِ بالبغال ، يسيرون على الأقدام .

فما إن رآهم دون كيشوت حتى تيقّنَ أنهم من الفرسان المتجوّلين — إذ لا يعقَلُ أن يكونوا غيرَ ذلك — وأنه قادمٌ على مغامرة كبرى ، يجبُ أن يستعدّ لها . هنالك همَزَ فرسه ، ووقفَ في عُرْضِ الطريق ، شادّاً نفسه ، مُعدّاً رمحه ، ضامّاً تُرْسَه ، متأهّباً للقاءِ أولئك المحاربين . فلمّا اقتربوا صاحَ بهم بصوتٍ مُرعب قائلاً :

— « مكانكم أيها القوم ! يجب أن تعترفوا ألا حسناء في الأرض تماثلُ إمبراطورة المانش ، دولسينيه دوتوبوزو ، الرائعة الجمال ! »

فتوقف التجار وقد أدهشتهم المفاجأة ، ثم أدركوا أنه رجل مجنون . ولكن واحداً منهم كان يحب المرح والفكاهة ، فأراد أن يغتنم الفرصة ويضحك ، فقال له :

— « أيها السيد الفارس ! لا أحد منا يعرف السيدة التي ذكرت ، فهلا أريتنا إياها حتى نتمكن من الحكم ! فإن كانت جميلة كما تقول ، فلن نتأخر عن تأييد كلامك عن طيب خاطر ! »

قال دون كيشوت :

— « حقاً ؟ ! وأي فضل يكون لكم إن رأيتموها واعترفتم بأنها جميلة ؟! المهم في الأمر هو أن تكونوا على يقين من ذلك دون أن تقع أعينكم عليها ، وتعلنوه ، وتؤكدوه ، وتقسموا عليه ، وإلا فليس أمامكم غير الحرب ، أيها المتكبرون المغرورون ! لينزل واحد لواحد ، كما تقضي قوانين الفروسية النبيلة ! أو فابرزوا إلي جميعاً كما يفعل الجبناء أمثالكم ، فإن ذراعي كافية لكسب المعركة ! »

التاجر : « هل تتنازل بالاستماع إلي ! لو أن سيادتك تلطفت وأريتنا فقط صورة لهذه السيدة ،

لكان في وسعنا أن نحكم ، حتى ولو كانت الصورة بالغة الصغر . وقد أصبحنا على تمام الاستعداد لأن نقول ما يسرك ويرضيك ، حتى ولو كانت حولاء أو عوراء أو عرجاء أو حدباء ! »

فصاح دون كيشوت وقد اشتعل غضباً : « إنها لا حولاء ولا عوراء ، أيها الوغد الحقير ! إن عينيها أجمل وأشد التماعاً من مشعل الكون ، وقوامها أرشق وأشد استقامة من مغزل في جبال « قضاراما » . إنكم ستدفعون ، في الحال ، ثمن وقاحتكم وإهانتكم ! »

وما إن نطق بهذه الكلمات ، حتى انطلق في اتجاه التاجر ، ورمحه منخفض إلى أمام . ولولا أن فرسه قد كبت ، لأصاب التاجر المتفكه شر كبير . ولما وقع روسينانت ، لم يستطع فارسه أن ينهض لأن آلته الحربية كانت تعيقه . وبينما كان يحاول النهوض ، دون فائدة ، كان يصيح بالتجار :

— « لا تهربوا ، أيها الجبناء ! الخطأ خطأ الفرس .. ولولا ذلك للقيتم عقابكم ! »

فتضايق أحد الخدم من هذه الشتائم ، فما كان منه

إلا أن تقدَّمَ من الفارِس ، الذي لا يزالُ في الأرض ، وأخذَ منه رُمْحَهُ ، وكسَّرَهُ إلى عدَّةِ قِطَعٍ ، ثم أخذ قطعةً ، وراحَ يَكيلُ الضرباتِ لدون كيشوت ، الذي كان يهدِّدُ ويتوعَّد ، والغضبُ آخذٌ منه كلَّ مأخَذ . وكان التجارُ ينادون خادمَهم ، ويطلبون إليه أن يكفَّ : ولكن يبدو أنه وجَدَ لذَّةً في ذلك ، فلم يتوقَّفْ حتى استهلكَ جميعَ قِطَعِ القناة على جنْبي الفارسِ المنكود . بعد ذلك عادَ إلى أسيادِه ، واستأنفَ الرَّكْبُ المسيرَ

أما بطلُنا فقد أصبح نهوضُه أعسَرَ مما قبلُ ، من جرَّاءِ ما سقَطَ على جسدِه من الضرب ، ولكنه اعتبرَ نفسَه سعيداً لأنه خرَجَ ، بهذه النتيجةِ فقط ، من معركةٍ كهذه لاقاهُ فيها عددٌ كبيرٌ من الفرسان المتجوِّلين ، ثم إنه لم يقصِّرْ ، هو ، في شيءٍ ، لأنَّ الفرَسَ هو الذي أوقعَه .

في هذه اللحظةِ مرَّ بقُربه فلاحٌ من قريته كان يحملُ قمحاً إلى الطاحون . ولما رأى الفلاحُ رجلاً يئنُّ على الأرض أقبلَ عليه ، وسأله عمّا به . فراحَ دون كيشوت يُلقي على مسامِعِه قصيدة « بودوان » الشهير

في المركيز « دي مانتو » . فأخذَ الفلاحُ ، الذي لم يفهمْ كلمةً مما قاله ، يفكُّ له القِناعَ ، وينفُضُ عن وجهه التراب . ولما عرفَه ، صاحَ دَهِشاً :

— « مَنْ ؟ ! السيد كيكسادا ؟! من الذي فعَلَ بكَ هذه الفِعال ؟ »

فلم يردَّ عليه دون كيشوت بغيرِ القصيدةِ ، التي كان ماضياً في إلقاءِ أبياتها . ونزعَ الفلاحُ عنه درعَه ، ليرى إن كان مُصاباً بجراح ، ولكنه لم يرَ أثراً للدَّمِ في أيِّ مكان ، فساعدَهُ على الوقوفِ ، وأركبَه ، بكلِّ جهدٍ على حمارِه ، حتى لا يهتزَّ أثناءَ السَّير . بعد ذلك جمَعَ له أسلحتَه وقِطَعَ قناته وربطَها على ظهرِ روسينانت ، ثم جرَّ الفرسَ والحمار ، وسار في اتجاهِ القرية ، وهو يفكِّرُ في ما كان يقولهُ دون كيشوت .

ووصلا القرية عند الغروب ، فأوصلَ الفلاحُ دون كيشوت إلى منزلِه ، الذي كان يسودُه القلقُ والاضطرابُ لغيابِ دون كيشوت . وكان هناك ، في تلك اللحظة ، صديقاه الكاهنُ والحلاّق . وكانت الخادمةُ القيِّمةُ تنتَحِبُ مُتَفجِّعةً ، وتقول للكاهن :

— « وماذا ترى ، أنت ، يا سيدي المُجاز « بيروبيرز » ؟ ها قد مضى على غيابه ستّةُ أيّام ! .. إن كُتُبَ الفروسية اللعينة هي التي أفسدتْ دِماغَه ! .. أنا أذكرُ أنني سمعتُه

تحدَّث نفسه ، ويقول إنه يُريدُ أن يجعلَ من نفسه فارساً متجولاً ، ويذهبَ لخوضِ المغامرات . لِتَحملِ الشياطينُ تلك الكتبَ التي أتلفتْ أفضلَ رأسٍ في «المانش» !..»

قال الكاهن :

— « أنتِ على حقّ ! فإننا لم نتّخذْ الاحتياطاتِ اللازمةَ لتجنيبه خطرَ هذه الكتُب . ولكن صبرَكِ عليّ .. فلن أدعَها تُفسدُ شخصاً آخرَ بعد أن صنعَتْ ما صنعتْ بصديقي ! »

في تلك اللحظةِ وصلَ الفلاحُ ، وقرعَ البابَ صائحاً :

— « افتحوا ، من فضلِكم ! فإنّ معي المركيزَ دي مانتو السيد بودوان ، وهو جريح ! »

هنالك جرى الكلُّ نحو الباب ، وتلقّوا بالعِناق دون كيشوت ، الذي لم يكن قادراً على النزولِ عن ظهرِ الحمار .. قال البطل :

— « دعوني .. فأنا جريحٌ ! .. مصابٌ بجروحٍ بالغة ! .. إحملوني إلى سريري ، وادعوا إليّ الحكيمةَ « أورغوند » لتكشفَ على جراحي ! »

قالت المربّيةُ للكاهن :

— « أتسمعُ ؟ ! ألم يكنْ تحسّبي في محلّه ؟ » ثم لدون كيشوت : « تعالَ ، يا سيّدي ، تعال ! سنعرفُ كيف نعالجُك دون الاستعانةِ بالحكيمةِ « اورغوند » ! ..

لَعَنَ اللهُ هذه الكتُبَ الحقيرةَ التي أوصلَتْك إلى هذه الحال ! »

ومن ثمّ تعاونوا على نَقْلِ دون كيشوت إلى سريره ، وجعلوا يُلقون عليه الأسئلةَ التي لم يكنْ يجيبُ عليها بغيرِ الشكوى من الجوعِ والنّعاس ، فكفّوا عن سؤالهِ ، واستجابوا إلى رَغْبتِه .

٣ . المغامرة الثانية

في صباحِ اليومِ التالي . استفاقَ دون كيشوت وهو يصرُخُ : « إليّ ! إليّ ! ههنا يجبُ أن تُبرهنوا على إقدامِكم ! .. نبلاءُ البلاطِ فازوا بجائزةِ المباراة ! »

فتراكضَ نحوه الجميعُ ، فوجَدوه واقفاً على قَدَميْه ، وقد جرّدَ سيفَه وراح يضربُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمال ، ويصيحُ بأعلى صوتِه . وبعدَ كثيرٍ من العَناءِ استطاعوا أن يجردوه من سِلاحِه ، ويُعيدوه إلى السّرير . وعندها التفتَ بَطَلُنا نحوَ الكاهنِ وقال له :

— « يا لَهُ من عارٍ ، أيُّها السيّدُ رئيس الأساقفة توربان ! أليس عاراً علينا أن نكونَ اثني عشَرَ فارساً ، ونَترُكَ نُبلاءَ القصرِ يفوزون بجائزةِ المبارياتِ التي لم تستمرَّ إلا ببسالتِنا ، طيلةَ ثلاثةِ أيام ؟ ! »



دون كيشوت وخادمه ....

قال الكاهن :

— « خفِّفْ عنك ، أيها الجار ! فلا بدَّ من القبول بالواقع ! ولكنْ عسى اللهُ أن ينصرَنا فيما بعد ، فنَستعيدَ ما فقدْناه بالأمس ! أما الآنَ فعلينا أن نهتمَّ بصحتك .. فأنت مُتْعَبٌ ، بدونِ شكٍّ .. وقد تكونُ مجروحاً ! »

فأجاب دون كيشوت قائلاً :

— « كلا ! ليس بي جُرْح ! ولكنني محطَّم ، لأن ذلك الشيطانَ « رولاند » ، أطارَ صوابَه كوني الوحيدَ الذي يزاحِمُه على الفوْز ، فضربني طويلاً بجذْعِ سِنديانة . ولكنْ لن يكونَ اسمي « رينو دي مونتوبان » إن لم أجعلْه يدفعُ الثمنَ غالياً ، بعد أن أكونَ قد نهضْتُ على قدَميَّ ! أما الآن فأنا جائع ! »

وقُدِّم له الطعامُ ، فأكلَ ثم نامَ فورَ انتهائه .

في الأيامِ الخمسةَ عشَرَ التاليةِ ، ظلَّ هادئاً ، فلم يَبْدُ عليه أنه يخطِّطُ لحمْلةٍ جديدة . غير أنه كان في ذلك الوقتِ ، يعمل سِرّاً على إقناعِ فلاّحٍ ، من جيرانه ، يمتازُ بقلّةِ العقل ، بأن يكونَ له تابعاً ، يرافقُه في تنقّلاته . وقد بَذلَ له وُعوداً كثيرةً لترْغيبه في مهنةِ التابعِ المتجوِّل . ومن ضِمنِ هذه المُرَغِّباتِ أنّه كان كثيراً ما يُردِّدُ على مسامعه أنه من الجائزِ جدّاً ، في مثل هذه المِهْنَة ، أن يجدَ المرءُ نفسَه ،

بين عشيّةٍ وضُحاها ، حاكماً على جزيرة .

وقد بَهَرَتْ هذهِ الآمالُ الفلاّحَ الساذجَ ، الذي كان يُدْعى سانشو بانسا ، فقرّرَ أن يتركَ منزلَه ويبتعدَ عن زوجهِ وأولادهِ ، سَعياً وراءَ هذا الحُلم ، الذي وَعَدَهُ به .

ولما اطمأنّ دون كيشوت على التابع ، وجّهَ اهتمامَهُ نحو التزوُّدِ بمبلغٍ من المال . فباعَ قِطعةً من الأرض ، ورَهَنَ أخرى ، وتكبّدَ خسارةً في الاثنتين ، ولكنّه جَمَعَ مبلغاً معقولاً يستطيعُ أن يَستعينَ به في رحلته القادمة . ومن ثَمّ أصلحَ خُوذَتَهُ مرّةً أخرى ، واتّفق مع سانشو على اليومِ ، والساعةِ التي سيرحلان فيها ، وأوصاهُ ، بصفةٍ خاصّة ، بأن يحملَ معه خُرْجاً .

ولما انتهتْ جميعُ الاستعداداتِ ، خرجَ دون كيشوت وتابعُهُ ذاتَ ليلةٍ من الليالي ، وبدآ رحلتَهما ، دون أن يُعْلِما أحداً بذلك . وقد جدّا في المسير ، فما أقبلَ الفجرُ حتى كانا على مسافةٍ كبيرةٍ من القرية ، بحيث لم يَعُدْ من الممكنِ أن يُدرِكَهما أحدٌ .

كان سانشو الطيّبُ على ظهرِ حمارهِ ، وتحتَهُ الخُرجُ وإلى جانبه المَطَرةُ ، أشبهَ بالبطريق ! وكان يَحلُمُ بالجزيرةِ التي وُعِدَ بها ، ويتمنّى أن يصلَ إليها في لَمْحِ البصَر .

أما دون كيشوت فكان يتقدّم ، وهو فوقَ روسينانت النّحيلِ ، مُفْعَماً بالأمل ، عاليَ الجبين راضياً عن نفسه كلَّ الرضا .

قال سانشو ، الذي كان ينتظرُ فرصةً للتّحدّثِ عمّا كان يَشْغَلُه :

— « سَيادةَ سيّدي ! أتوسّلُ إلى فُروسيّتك المتجوّلة ألا تَتوهَ عن تلك الجزيرةِ ، التي وعَدْتَني بها . وإني لأضمنُ لك أنّها ستُحْكَمُ حُكماً صالحاً ، مهما كانت واسعةَ الأرجاء ! »

دون كيشوت : « أيها الصديقُ سانشو ! إعلمْ أن الفُرسانَ ، في كلّ زمان ، قد تعوّدوا أن يهَبوا أتباعَهُم كلّ ما يكسبونه بقوّةِ ساعدِهم ، من جُزُرٍ وممالك . فهل يخطرُ لك أنّني من الممكنِ أن أخالفَ هذا التقليد النبيل . بل أنا سأفعلُ أكثرَ مما فعلَ الفرسانُ الأوّلون . فلقدْ كان أغلبُ الفرسانِ ، الذين أتحدّثُ إليكَ عنهم ، يُنْعِمون على أتباعِهم ، بعد أن تتقدّمَ بهم السنّ ، لقاءَ خدماتهم السابقة ، بكونتيّةٍ أو مركيزيّة ، لا تكونُ ، في الغالبِ ، سوى مقاطعةٍ صغيرة . أما أنا ، فإنْ مَنّ اللهُ عليّ بالحياةِ فلسوفَ أكتسِحُ ، قبل انقضاء ستّة أيامٍ ، إمبراطوريةً واسعةً ، تكون إحدى ممالكِها تحتَ تصرّفِك . »

سانشو : « وبعدَ أن يحدُثَ هذا وأُصبح ، أنا ، مَلِكاً ، تُصبحُ زوجتي « آن غيتيير » مَلِكةً ، هي الأخرى ، وصِغاري أمراء ؟ » .

دون كيشوت : « ومنذا الذي يشكّ في ذلك ؟ »

سانشو : « أنا ! .. أنا أشكّ ، لأنني أعرِفُ زوجتي تمام المعرفة ! فلو أن السماءَ أمطرتْ تيجاناً ، لما كان بينها تاجٌ واحد يمكنُ أن يناسبَ رأسَها ! .. إنني أحذّرُك ، منذُ الآن .. إذ كيف تَستطيع أن تكونَ ملكةً وهي لا تساوي مرابطيّين اثنــين (مليّمين) ؟ ! .. أن تكونَ كونتيسةً .. أنا لا أمــانعُ في ذلك ! .. وحتى في هذه الحالة ، لن يكونَ الأمرُ سَهلاً كما ينبغي ! »

دون كيشوت : « لا تقلق من أجلِ ذلك، يا صديقي ! فلا بدَّ أنّ اللهَ سيَهَبُها ما هي في حاجةٍ إليه ! .. أما أنتَ فلا تكُنْ متواضِعاً ولا تقبلْ إلا بمملكةٍ كبيرة ذاتِ قيمة ! »

سانشو : « أوه ! إطمئنّ ، سَيادتُك ، من هذه النّاحية ! فأنا معتمدٌ عليكَ في هذا الأمرِ.. وسيدٌ بمثلِ سَطْوَتِك وطيبتك يعرفُ جيّداً ما يناسبُني ... »

في هذه اللحظةِ شاهدَ دون كيشوت ثلاثين أو أربعينَ

طاحونةً من طواحينِ الهواء . فالتفتَ إلى تابعهِ وقال :

– « أيّها الصديقُ ! ها هي الثروةُ قد وافَتْنا دونَ أن نَسعى إليها ! .. أترى إلى أولئكَ العمالقة المُخيفين ، هناك ؟ ! إنّهم يَفوقون الثلاثين عدَداً ! .. ولكنْ ، لا يَهمُّني ذلك .. وسأهاجِمُهم ! .. إنّ أسلابَهم ستُغنينا ! »

سانشو : « أيّ عمالقة ؟ »

دون كيشوت : « العمالقةُ الذين تراهم هناك ، ولهم أذرعٌ طويلة ، قد تبلغُ الواحدةُ منها فرسَخين طولاً ! »

سانشو : « ولكنْ .. يا سيّدي !.. انتبهْ جيّداً !.. هذه طواحينُ هوائيّة ، وما يبدُو لكَ كأذرعٍ لها ليس سوى مراوحها ! »

دون كيشوت : « واضحٌ تماماً، يا صديقي المسكينُ ، أنّك غيرُ خبيرٍ في المغــامرات . هؤلاء عمالقــةٌ حقّاً وصدقاً .. وأنا لا يمكن أن أخطىء في معرفتِهم ! فإن كنتَ خائفاً ، فما عليكَ إلا أن تَبتعدَ ! .. إذهبْ إلى أيّ ناحية ، واقضِ الوقتَ في الصلاة ، بينما أنا أخوضُ هذه المعركةَ الخطرةَ الفريدةَ . »

وبعد أن نطقَ بهذهِ الكلماتِ همزَ فرسَه ،

بالمِهمازَين معاً ، وانطلقَ نحو الأعداء ، غيرَ ملتفت
إلى تحذيرِ سانشو المسكين ، الذي كان يصيحُ ، بكلِّ
ما أوتيَ من قوّة ، مؤكِّداً لسيّده أن هذه طواحينُ هواءٍ
لا عمالِقة .

كان دون كيشوت يصرُخُ هادِراً :

— « إنتظروا : .. انتظَروا ، أيها اللصوص الجُبناء ! ..
إن فارساً واحداً يهاجِمُكم ! »

وفي نفسِ اللحظةِ هبّتِ الريحُ ، فبدأتِ المراوحُ
تدورُ ، فصاحَ دون كيشوت :

— « أوه ! مهما صَنعتُم ، ومهما حرّكتُم من
الأذرُع ، وكانت أذرعُكم أكثرَ من أذرُعِ « برياريه »
(عملاق أسطوري له خمسون رأساً ومئةُ ذراع وهو
ابنُ السماءِ والأرض ، وقد قيّدَهُ زيوس ، كبيرُ الآلهة ،
في الأساطيرِ اليونانية ، وألقاه في البحر) فلن تَنْجوا
من العِقاب ! »

بعد هذا ، ضمّ إليه تُرْسَه ، وسدّدَ رُمحَه إلى أمام
وهَجَمَ على أوّلِ مِروَحة ، مُستعيناً باسم « دولسينه »
فرَفَعَتْهُ المِروَحَةُ هو والفرسَ ، وألقتْ بهما بعيداً ،
وبينَ الواحدِ والآخرِ نحوُ عِشرين خُطوة . فحثّ سانشو
حمارَه ، ليُدْرِكَ سيّدَه ، ويرى ما حلّ به . وقد وجَدَ

صُعوبةً كبيرةً في مُساعدَتِه على النهوض ، لأن الصدْمةَ
كانت قويّةً ، في الحقيقة . وكان سانشو يتحدّثُ ،
وهو يقومُ بهذهِ المُهمّة ، ويقول :

— « ليكُنِ اللهُ في عوْني ! .. منذُ ساعة وأنا
أصيحُ ، وأقولُ لك إنها طواحينُ هواء ! .. لا بدّ أنه
كان في رأسِك شيءٌ آخرُ حتى لم ترَها ! »

دون كيشوت : « أسكتْ ! أسكتْ ! إن المرءَ
ليَتعرّضُ ، في مِهنةِ الحربِ ، إلى تقلّبات الحظّ ،
أكثر من أيّ مهنةٍ أخرى ، خاصّةً إذا كان عدوّه هو
الساحرَ ، المرهوبَ الجانب، « فريستون » ! إنني أدركُ
تماماً ما فعَلَ بي : فقد قلَبَ العمالِقةَ طواحينَ ليَحْرِمَني
مجدَ التغلّبِ عليْهم ! ولكن .. صبْرَك ! لا بدّ أن
يفوزَ سيفي ، في النهاية ، على دهائه ! »

قال سانشو ، وهو يوقفُ سيّده ، ويجري ليُوقفَ
روسينانت ، الذي كانت كتِفُه نصفَ مخلوعة :

— « إن شاءَ اللهُ ! »

وعاد البطلُ إلى ظهر فرَسِه . فقال له تابعه :

— « ألا يرى سيّدي أنه حانَ وقتُ لغداء ؟ »

فأجاب دون كيشوت بأنّه لا يحتاجُ إلى شيء ،

أما هو ، ففي إمكانه أن يأكُلَ إذا شاءَ . فما إن تلقّى
سانشو الإذنَ بالأكلِ ، حتى اعتدلَ على ظهرِ حمارِه ،
وتناولَ الزادَ من الخُرْجِ ، وراحَ يأكلُ بشهيّةٍ ما بعدها
شهيّةٌ ، شاعِراً بأن حياةَ المغامراتِ شيءٌ جميل .

وحوالى منتَصفِ النهارِ ، توقّفا عن المَسيرِ ،
ليقضيا فترةَ الحرّ في مَرْجٍ أخضرَ ريّان ، يجري وسْطَه
جَدولٌ صغيرٌ رَقراق . وترجّلَ السيّدُ ومساعِدُه ،
وتركا روسينانت والحمارَ يرعيان العشْبَ المنتعش ، ويسرحان
على سجيّتِهما . أما هما فقد فتّشا في الخُرج ، وجلسا
يأكلان ما وجَدا فيه دونما تكلّف . وشاءت الصُدَفُ
أن تكونَ في المرجِ مجموعةٌ من الخيولِ الاسبانيّة ،
توقّفَ بها رُعاتُها لقضاءِ فترةٍ من الراحة .

وتشاءُ الصدَفُ كذلك أن يرفَعَ روسينانت عُنُقَه
الأعجفَ ، فيرى الخيل ، فيجْرِيَ نحوها ، ويبدأ
بالدّوَران حولها بصَداقة . ويبدو أن الجيادَ لم تكن رائقة
المَزاج للّعب ، فاستقبلتْ روسينانت باللّبْط ، فكسرَتْ
له عُدّته وقطعتْ سرْجَه وتركتْه عارياً تماماً ، ولو
توقّفَ الأمرُ عند هذا الحدّ لهان ، ولكنّ الرعاةَ امتشقوا
عصيّهم المُحدّدةَ ونزلوا بها على الفرس، حتى طرحوه
أرضاً . في هذا الوقتِ كان دون كيشوت وتابِعُه يجريان
لإنقاذِ روسينانت من يدِ البغّالة . وكان دون كيشوت

قد جرّدَ سيفَهُ وتناولَ أول بغّالٍ لقيَهُ بضَرْبةٍ مقلوبة
فشقّ له السّترةَ الجلديّة ، التي كان يرتديها ، وأصابَهُ
بجُرْحٍ في كتفه . وأرادَ سانشو أن يقلّدَ سيّدَه ويجرّبَ
نفسَهُ في المعارِك ، فاشتركَ معه .

هنالكَ تجمّعَ البغّالةُ حولَهما ، وفي أيديهم العِصيّ
المحدّدة ، وراحوا يكيلونَ لهما الضّرَبات الشديدة .
وكان أوّلُ من وَقَعَ أرضاً هو سانشو المسكين ، ومن
ثُمّ تبعَهُ دون كيشوت ، فوقعَ ، دونَ حَراكٍ ،
عند قوائم روسينانت . وخـافَ السوّاس أن يكونوا قد
أدّبوها أكثرَ ممّا ينْبغي ، فجمعوا خيولَهم بسُرعة ،
وغادروا المرجَ ، تارِكين على أرضِه السّيدَ والتابعَ
والفرسَ جميعاً دون حَراك .

وكان أولُ من استعادَ الوعيَ هو سانشو المنكود
الحظّ ، الذي نادى سيّدَه بصوتٍ شاكٍ ضعيف :

— « سيّدي دون كيشوت ! .. آه ، يا سيّدي
دون كيشوت ... »

فأجابه هذا بصوتٍ لا يقلّ ضُعفاً :

— « ماذا تريدُ ، يا أخي سانشو ؟ »

— « متى ، في رأيكَ ، نستطيعُ استخدامَ أرجلِنا
مرّةً أخرى ؟ »

— « لا أعرفُ ، يا صديقي المسكين . غير أنّني أعترفُ أن كلَّ ما حدث لنا كان نتيجةَ خطأي أنا . فقد اشتبكتُ مع رجال لم يُرْسَموا قَطّ فرساناً ، فخالفتُ قوانين الفروسيّة ، وكان أنْ نِلْتُ العقابَ الذي استحقّه . فمن الآنِ وصاعداً طبّقْ ما أوصيتُكَ به بالدقّةِ يا بُنيّ : عندما يهاجمُنا أوباشٌ من هذا الصّنْف ، لا تنتظرْ أن أجرّدَ سيفي ، بل هاجمْهُم بمفردِك وعاقبْهُم كما يحلو لك العقابُ ، فإن أقبلَ فرسانٌ لنَجْدَتِهم ، انبريتُ أنا لهم ، وتكفّلْتُ بهم .. وأظنّك أدرى الناسِ بما يتميّزُ به ساعِدي من قوّةٍ رهيبة . »

— « لقد قلتُ لك ، يا سيّدي ، إنني لا أحبّ المعاركَ ، على الإطلاق ، فأنا رجلٌ بسيطٌ ، وليَ امرأةٌ وأولاد . وما في الناس إنسانٌ أسرعُ مني إلى الصّفْح عن الأخطاءِ الماضيةِ والحاضرةِ والمستقبَلَة ، التي تُقترفُ ضِدّي ، سواءٌ كان مقترفُها فارساً أم غيرَ فارس .. فأنا لا أحملُ ضَغينةً لأحد . ولهذا فلا تَنتظِرْ مني أن أستخدِمَ ، مرةً أخرى ، سَيْفي الذي جرّدتُه لأوّل مرّة ، وما عرفتَ كيف يُستَخدَمُ ، إذ لم أكدْ أرفعُهُ حتى رأيتُني ملقىً على الأرض . »

— « دَعْكَ من هذا ، يا بنيّ ! .. هيا ننهضْ ونُسعِفُ هذا الحصانَ المسكين . الذي لا ذَنْبَ له

في ما حدث . »

— « ؟ أليسَ ، هو أيضاً ، فارساً متجوّلاً ؟ .. الذي يخفّفُ عني هو أن حماري لم تُصَبْ أيّ وَبْرَة فيه ! »

— « أترى كيف أن القَدَرَ يتركُ مجالاً للمرء حتى وسْطَ المصائب ؟ فما دامَ جوادِي عاجزاً ، ففي وُسْعِ حمارِكَ أن يحملَني إلى أحدِ القُصورِ حيثُ يمكن أن تُضمّدَ جراحي ! »

— « ولكني أشُكّ في قُدْرَتِك على ركوبِ الحمار ، ولا بدّ : في حالتِكَ هذه ، من وَضْعِك عليه ، كما يُوضع كيسُ القمح . »

— « سنسيرُ كما نستطيع .. على أيّ حالٍ إنه لمما يُشرّفُ أن يعودَ الفارسُ جريحاً من إحدى المعارك . هاتِ حمارَك ، ولنَخرُجْ من هذِه الصحارى قبل هُبوطِ الليل ! »

وبذلَ التابعُ المسكينُ أقصى ما لَدَيْه من جُهْد حتى استوى واقفاً ، وهو يئنّ ويتوجّعُ ، ويستمطرُ اللّعَنات على من أوصلَهُ إلى ما وَصَلَ إليه . ومن ثَمّ اتّجهَ بجُهْد نحو الحمار ، الذي كان يرعى في المَرْج ، بسعادة . بعدَ ذلكَ ذهبَ نحو الحصان ، الذي لم يكن ينقُصُه سوى الكلام ، ليَشْتكيَ ويتوجّع أكثرَ من

صاحبِه . وتمكّن التابعُ من إنهاضِه بجهد . ثم وضع سيّدَه فوق الحمار ، وربطَ الفرسَ بذيلِ حمارِه ، واحد رسَنَه بيدِه ، وسار جارّاً وراءه رفاقه الثلاثة .

ولم يقطعا سوى بعضِ فرسخٍ حتى رأيا نُزُلاً متواضعاً ، ما لبثَ دون كيشوت أن توهّمَهُ قصراً كبيراً . وعبثاً حاولَ التابعُ أن يُقنعَهُ بأنّه ليس سوى خان ، وكان النقاشُ لا يزالُ دائراً عندما دخلَ الرّكبُ من باب الخان .

٤ . مغامرة النزل

ولما رأى الخانيّ رجُلاً ملقىً على ظهرِ حمار ، خفّ إلى سانشو يسألهُ عمّا به . فقال له التابعُ إنّه ليس به شيء ، سوى أنّه وقعَ من رأسِ جبلٍ عالٍ ، فرُضّتْ أضلاعُه بعضَ الشيء .

ومن الصُدَف النادرة أن امرأةَ الفندقيّ كانت طيّبةً نبيلةً تتحسّسُ بآلامِ الآخرين ، فأسرعتْ إلى العناية به ، هي وابنتُها . وكان في الخان أيضاً خادمةٌ أقبلتْ لمعاونةِ سيّدتَيْها . وعمَدْنَ جميعاً إلى نَصْب سرير لدون كيشوت ، في حُجرةٍ كانت مخصّصةً لتخزين التّبْن . فوضعن أربعةَ ألواحٍ خشبيّة ، غيرِ مصقولة ، على دِكّتَيْن ، غيرِ متساويتَين ، وبَسَطْن فوقها

فراشاً ، أقسى من الخشَب الذي تحته ، ثم غطّيْن الفراشَ بملاءةٍ من خامِ المراكب ، ووضعْن فوقه بطّانيّةً ، يمكن عدّ خيوطِها . ومن ثَمّ أرقدْنَ دون كيشوت على هذا السرير ، ورُحْن يَضَعْن له « اللّزقاتِ » ، من رأسِه حتى القدَم .

ولما نظرتْ زوجةُ الخانيّ إلى آثارِ الكدَمات ، رأتْ أنها أشبهُ بآثارِ ضرب أكثرَ منها برضوضٍ ناتجة عن سقُوط من جبل ، وأبدت هذه الملاحظةَ لسانشو . ولكن التابعَ الكتومَ قال :

— « ليستْ هذهِ بضرَبات ! .. ولكن الجبلَ كان مغطّى بالصخورِ الناتئة ! غيرَ أني أكونُ لكِ شاكراً لو استبقَيْتِ بعض « اللزقات » من أجلي ، أنا ، فأنا أشعرُ بألمٍ في خاصرتيّ ! »

— « ماذا ؟ ! هل وقعتَ ، أنت أيضاً ، من الجبل ؟ »

كلاّ ! .. ولكنْ عندما وقعَ سيّدي ، أصبْتُ بصَدْمةٍ شديدة ، حتى لكأنّ مئةَ عصا وقعتْ على جسدي ! »

قالت ابنةُ الخاني :

— « هذا لا يدهشُني على الإطلاق .. فكم من مرّةٍ رأيتُ نفسي ، في الحُلم ، أسقطُ من بُرجِ الناقوس ، وفي الصّباحِ كنتُ أحسّ بآلامٍ شديدة ، كأن الحُلم كان حقيقةً . »

قال سانشو :

— « هذا ما حدَثَ فعلاً ، ولكنَّ الفرْقَ هو أنني لم أكنْ أحلُمُ ، بل كنتُ أشدَّ صَحْواً مني الآن . »

وسألته الخادمةُ ماريتورن :

— « وما اسم سيدك ؟ »

— « دون كيشوت دي لامانش، وهو فارسٌ متجوّلٌ من أبرعِ الفرسان وأشجعِهم ! »

وعادت الخادمةُ تستفسر :

— « وما معنى : فارس متجوّل ؟ »

— « عجباً ! كم أنتِ ساذَجة ! إن كنت لا تعرفين ما هو الفارس المتجوّل ! ليكُنْ معلوماً لَدَيكِ أن الفارسَ المتجوّلَ هو الذي يكونُ باستمرار مهيّأً إما لأنْ يُصبحَ أمبراطوراً أو أن يتلقّى الضَرْبَ المبرّحَ ، وهو الذي يجوعُ يوماً ، ويوماً آخرَ يحوزُ على ثلاثِ أو أربعِ ممالك ، يهبُها ، دونَ اكتراثٍ ، لتابعه . »

قالت المضيفة :

— « وكيف لم تحصَلْ على كونتيةٍ من الكنتيّاتِ وأنتَ تابعٌ لسيّدٍ عظيمٍ إلى هذا الحدّ ؟ »

— « صبرَكِ ، يا سيدتي ! فنحنُ منذُ شهر ، على الأكثرِ ، نبحثُ عن المغامرات .. ولكنّنا لم نقَعْ على أيّ واحدة . أما بعدَ أن يَشفَى سيّدي من جراحه — أقصِدُ من سقْطتِه — فلن أرضى بأقلّ من دُوقيّة من أكبرِ دوقيّات إسبانيا ! »

في اليوم التالي ، عندما أفاقَ دون كيشوت ، قالَ لسانشو :

— « ان أفضلَ ما يمكنُ أن تفعلَهُ ، هو أن تَنْهَض ، إذا كان في استطاعتِك ذلك ، وتذهبَ إلى قائدِ هذه القلعَةِ وتطلُبَ منه قليلاً من الزيتِ والملح والنبيذ فمن هذه الأشياءِ سأصنعُ ترياقاً يستطيعُ أن يشفيَنا في طرْفةِ عين . »

فتحاملَ سانشو على نفسهِ ، رغم آلامهِ ، ونهض ، ثم ذهبَ إلى صاحبِ الخان ، الذي أعطاهُ ما طلَبَ ، دون تأخّر . فعادَ فرِحاً إلى سيّده . فأمر هذا بغَلْي الحميع . ثم طلب قارورةً من الزجاجِ ، فأتاه الخاني بإبريقٍ من « التَنَك » كان يضعُ فيه الزيتَ ، إذ لم يجِدْ قارورةً لديه ، فملأهُ دون كيشوت من المَغْلِي ، وهو يتلو الصلَواتِ ويُصلّبُ . والجزءَ الباقي في الوعاء شَرِبَهُ بأجْمَعه . فلم تمضِ لحظاتٌ حتى جرى العَرَقُ من جَسدِهِ بغزارة ، ونام بعد ذلك ثلاثَ ساعات ، أعادتْ إليه القوّةَ والنّشاط ، فلم يعدْ لَدَيْه شكٌ بأنّ في استطاعتهِ ، من الآنِ فصاعداً ، أن يقتحِمَ الأخطارَ

ما دام في حوْزَتهِ إبريقُ التّرياق .

ودُهِشَ سانشو من مفعولِ ذلك الدواء العجيبِ ، فَرَجا سيِّدَه أن يمنحَه شيئاً منه ، فوافقَ دون كيشوت على ذلك . ولكنْ يبدو أن الكميةَ كانت قليلةً بالنسبة إلى التابع ، فأحدثتْ لديه مَغْصاً ، أصبح معه يتقلّبُ كَمَنْ لَسَعَتْهُ أفعى ، ويشتُمُ التّرياقَ ومن أعطاهُ التّرياق فقال له دون كيشوت :

— « أنا أعتقدُ ، يا صديقي العزيز ، أن السببَ في كلّ ذلك هو أنّك لستَ فارساً ، إذ يبدو أن هذا التّرياقَ لا يُحْدِث تأثيرَه إلا في الفرسان ! »

فصاحَ سانشو وهو يكادُ يفقِدُ النَفَس :

— « ولماذا لم تُخْبرني بذلك ؟ كان في وسْعِك أن تحذّرني ! »

على أنه ، عندما سكتتْ عنه الآلامُ ، شعرَ بأنه تحسّنَ إلى حدٍّ ما ، لكنْ ليس بقدْرِ ما تحسّنَ سيدُه .

ولما رأى دون كيشوت نفسَه ، وقد زالَ كلّ ما به ، ذهبَ لإسراجِ فرسِه بنفسِه ، لأنه كان في عَجَلَةٍ من أمرِه لمواصلَةِ المغامرات ، ما دام قد تزوّدَ الآن بالتّرياق العجيب . ثم وضعَ البرذَعَةَ على ظهرِ الحمار ، وأعان تابعَه على رُكوبه. وبعدَ أن امتطى صَهْوَةَ حصانه خاطبَ الخانيّ وأسْرتَه ومن تجمّعَ هناك من الناس ،



دون كيشوت يندفع لإسراج فرسه بنفسه

الذين كانوا ينظرون إليه بمنتهى الدهش ، فقال :

— « أيها السيدُ القائد ! أرجو أن تتقبلَ شكريَ الجزيلَ على الكرمِ والحفاوةِ ، اللذين استقبلتني بهما في قصرك العامر ! إنني لن أنسى أبداً هذه الرعايةَ . ولكي أبرهنَ لك عن اعترافي هذا ، أرجو منك أن تخبرني إن كان أحدٌ قد أساءَ إليكَ أو وجهَ إليك إهانةً ما ، فإنَّ مهنتي الشريفةَ تقضي عليَّ بالاقتصاص من المسيئين ! .. إرجعْ إلى ذاكرتك ، وفتشْ فيها .. هل حدثَ مرةً أن أخطأ معك إنسانٌ ، حتى أثأرَ لك منه في الحال ؟»

— « أيها السيدُ ! أنا لستُ محتاجاً لأن تثأرَ سيادتُك لي من أيِّ شخص .. كلّ ما أحتاجُ إليه هو أن تدفعَ تكاليفَ هذه الليلة ، مع ثمنِ الشعيرِ والتبْن ، اللذين أكلتهما دابتاكما ! »

— « ماذا تقول ؟ ! وهل هذا نُزُل ؟ ! »

— « نزلٌ مشهور ، لحسْنِ الحظّ ! »

— « إنك لتُدهشني حقاً ! فقد كنتُ أظنّ أنه قصرٌ جميل .. ولكن لا بأس ! أما فيما يتعلق بالدّفع ، فأنتَ لا تزيدُ مني بالطبع أن أخالفَ قواعدَ الفرسان المتجولين ، وفي مقدمتها عدمُ الدّفعِ في الفنادقِ والخانات ، إذ أن أصحابها مُجبرون على استقبالِ الفُرسان المتجولين وإيوائهم دونَ أجر ، وذلك لقاءَ المشاقّ ، التي يتحملونها

ليلاً ونهاراً ، في الصيف والشتاء ، تحت الشمسِ الحارقةِ والثلوجِ المتساقطة ، من أجلِ الناسِ جميعاً .

— « كلّ هذا لا يهمني ، يا سيدي ! فادفعْ ما عليك ، ودعْكَ من قصصِ فروسيتك ، التي لا تدخلُ في حسابي على الإطلاق ! »

— « أنتَ رجلٌ أحمق ، يا صديقي ، لا تعرف كيف تؤدّي واجباتِ الضيافة الكريمة ! »

بعد هذه الكلمات همزَ دون كيشوت حصانه ، وانطلقَ خارجَ الخان دون أن ينظرَ وراءه ليرى إن كانَ سانشو في أثره . ولما رأى الخانيّ أن السيدَ قد فرَّ من يده ، أقبلَ على التابع يطلبُ منه تسديدَ الحساب . ورغم صياحه وتهديده ، رفض سانشو أن يدفعَ شيئاً ، لأن قوانين الفروسية تسري عليه كما تسري على سيده ، ثم ماذا سيقولُ عنه التابعون المتجولون في المستقبل إنْ أقدمَ على مخالفةِ هذه القواعد ؟

ولسوء حظّ سانشو المسكين ، كان في النُزُل خمسةُ أو ستةُ فتيانٍ من « أشبيلية » ، يحبّون الضحكَ واللهْوَ على حسابِ الآخرين . فجاؤوا ببطانيّة أمسكوا جميعهم بأطرافها وألقوا عليها التابعَ المتجولَ ، وراحوا يقذفونه إلى أعلى ثم يتلقونه بالبطانيّة كأنّه كُرَةٌ كبيرة .

ولما وصل صياحُه إلى مَسْمَعِ سيّده ، عاد هذا أدراجَهُ نحو الخان ، الذي حَرَصَ صاحبُهُ أن يُقفلَ بابَه . فدار دون كيشوت حول السّورِ ، فلم يجدْ مَنفذاً ، فاكتفى بإطلاق الشّتائم ، وهو يرى خادمَه يرتفعُ ويهبطُ بين الجماعة العابثة . ولولا الغضبُ الذي كان يملأُ صدرَه ، لما استطاعَ أن يمنعَ نفسَه عن الضحكِ أمام هذا المَشْهَدِ الطّريف .

ولما تعبَ الفتيانُ تركوا التابعَ المسكين . فرقّ قلبُ الخادمة ماريتورن عليه ، فأقبلتْ على بئرٍ هناك ، ملأتْ منها دلواً وحملتْه إلى سانشو . وما كادَ هذا يحملُ الدلوَ إلى فمِه حتى صاحَ به دون كيشوت من وراء السّورِ ، قائلاً :

— « حاذرْ ، يا بني ، أن تشربَ من هذا الماءِ القذرِ ، فإنّه يقتُلك . أذكرِ التّرياقَ الذي معي ، واذكرْ أن نقطةً واحدةً منه قادرةٌ على شفائك ! »

كان دون كيشوت يتحدّثُ ، وهو يرفعُ بيدِه الإبريق ويدُقّ عليه ، فرَنا إليه سانشو من أسفلَ وبطَرفِ عينَيْه ، وقال :

— « هل نسيتَ أنني لستُ فارساً ؟ ! إحتفظْ بشرابك القذرِ ، ودعْني في سلام ! »

وعاد يشربُ من الدّلْو ، ولكنّه ما لبثَ أن أبْعَدَه

عن فمه ، وهو يُبدي القرَفَ ، لأنه وجد أن ما يشربُه ماءٌ قُراح ، وليس خمراً ، وطَلَبَ من الخادمة أن تأتيَه بنبيذ . فلم تخيّبْ « ماريتون » الطيبةُ رجاءَه ، وجاءته بشيءٍ منه على حسابها .

بعد هذا فتح الخانيّ البابَ لسانشو ، الذي ضربَ بكعبَيْه بطنَ حماره وخرج ، وهو لا يصدّق . وكان مسروراً لأنه استطاعَ أن يُفْلِتَ دون أن يدفعَ أيّ شيء ، غير أنه ، في ذلك الوضعِ المضطربِ ، لم ينتبهْ إلى أنه لم يأخذْ معه خُرْجَه .

٥ . مغامرات هامة جديدة

ولَحِقَ سانشو بسيّدِه ، وهو لا يجدُ القدرَةَ على سَوْق حمارِه ، مما لَحِقَ به من أذى . قال له دون كيشوت :

— « يا صديقُ ! لقد أصبحتُ الآن على يقينٍ أن هذا القصرَ ، أو هذا النُزُل ، تسكنُهُ الأرواحُ ، فالّذين كانوا يتلاعبونَ بك ، بتلك الطريقة العنيفة المؤلمة ، لا يمكنُ أن يكونوا من الأشباح .. والسببُ في هذا هو أنّني ، عندما أردتُ اجتيازَ السّورِ لتخليصك ، لم أتمكّن من الحَركة ، ولولا ذلك لانتقمتُ لك انتقاماً لا مثيلَ له» .

— « لو كنتَ قريباً منهم مثلي ، لما حسبتَهم

أشباحاً .. إنهم من لحم ودم لا شك فيهما ، وأنا أعلم الناس بأنه لا دخل للأشباح في كل ما حدث ، فدع عنك هذا .. وأنا متأكد من أننا ، إذا استمررنا في البحث عن المغامرات ، فلا بد أن نقع على مغامرات أشد وأقسى نخسر فيها حياتنا . فخير ما نفعله الآن هو أن نعود إلى قريتنا ، ما دام موسم الحصاد قد أقبل . »

في تلك اللحظة رأى دون كيشوت غمامة بعيدة من الغبار ، فقال لتابعه بحماسة :

— « سانشو ! أخيراً جاء اليوم ، الذي يدخره لي الحظ لإظهار بسالتي وإقدامي ، وبناء مجد لي خالد على الدهر ! أترى إلى تلك الزوبعة البعيدة ؟ ! .. إن هذا جيش لجب مؤلف من أمم الأرض ! »

— « ما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن يكون هناك جيشان ، لا جيش واحد .. فهذه زوبعة أخرى من الناحية المقابلة ! »

والتفت دون كيشوت ، فرأى أن ما قاله سانشو صحيح ، فتأكد له أن هناك جيشين يشن كل منهما الهجوم على الآخر .

والواقع أنه كان هناك قطيعان من الضأن ، مقبلان من طريقين متعاكستين ، وقد أثارا غباراً كثيفاً إلى حد لا يمكن معه تمييزهما إلا عن كثب .

وراح دون كيشوت ، الذي استبد به الفرح ، يكرر ما قاله بثقة تامة ، حتى اقتنع سانشو كذلك بأن هناك جيشين بالفعل يزحفان على بعضهما ، فقال لسيده :

— « وماذا علينا أن نفعل الآن ؟ »

— « ماذا علينا أن نفعل ؟ ! .. بالطبع سنأخذ جانب الفريق الذي هو على حق ! .. إسمع .. سأشرح لك الموضوع بالتفصيل : أنظر إلى هذا الفارس الذي يرتدي درعاً من الذهب ، ويحمل ترساً نقش عليه أسد راقد عند قدمي راعية شابة .. إنه البطل المغوار « لوركالك » ، سيد وأمير « الجسر الفضي » . أما هذا الفارس الآخر ، الذي يحمل ترساً أزرق وعليه ثلاثة تيجان بيضاء ، فهو « ميكوكولمبو » الجبار ، دوق « كيرسيا العظمى » .. وراح يعدد له الأبطال ، حتى فاق عددهم المئة فارس ، وكل منهم له شارات وألوان مختلفة عن شارات وألوان الآخرين . فقال سانشو وقد تملكه اليأس من رؤية أي شيء :

— « ليتحملني الشيطان ، يا سيدي ، إن كنت أرى أي أثر لجميع من تذكرهم سيادتك من الفرسان والعمالقة والشعوب والأفواج ! .. لا بد أن في الأمر سحراً ، في هذه المرة كذلك ! »

— « ماذا ؟ ! ألا تسمع صهيل الخيول وقرع

الطّبول ، وأصواتَ الأبواق ؟ »

— « إنّني لا أسمعُ شيئاً .. اللهُمَّ إلا ثُغاءَ بعضِ الخرفان (إذ كان القطيعان قد بدءا يقتربان) » .

— « لقد أضاعَ الخوفُ صوابَكَ ! .. إنسحبْ إن كنتَ خائفاً ، فأنا وحدي أكفي لإحرازِ النّصرِ للفريقِ الذي سأنضمّ إليه ! »

قال هذا وأطلقَ العنانَ لفرَسه منحدراً نحوَ السّهل . وفي هذه اللحظة استطاعَ سانشو أن يميّزَ الأغنامَ ، فراحَ ينادي سيّدَهُ بكل قوّته :

— « عُدْ ، يا سيّدُ دون كيشوت ! .. إنك تهاجمُ الغنَمَ .. ليس هناك عمالِقةٌ ولا تروسٌ ولا شياطين ! .. ماذا هو فاعلٌ يا ربي ؟ ! »

أما بطَلُنا فلم يكُنْ يَسْمَعُه ، بل كان مواصلاً عَدْوَهُ ، وهو يَحُثّ الأبطالَ على القتال :

— « إلى الأمامِ ، أيها الفُرسان الشّجعان : يا مَن تُقاتلون تحتَ لواءِ « بانتابولان » .. إحمِلوا ورائي جميعاً ! »

وما هي سوى لحظات حتى شقّ القطيعَ وأصبحَ في وسَطِه . وراحَ يطعنُ في الغنَم بهياجٍ ما بعدَه هياجٌ . فجرى الرّعيانُ وجعلوا يصرخون عليه ليُوقفوه ، فلم يُفلِحوا ، فأخذوا مقاليعَهم وبدأوا يحرّكونها .

فصارت الأحجارُ تصفّرُ حول رأسِ دون كيشوت ، وهو ماضٍ في تحدّي الفرسان ، غيرَ عابئٍ بشيء . وفيما هو كذلك إذا بحَجَرٍ ، أكبرَ من قبضةِ اليدِ ، يُصيبُه في أضلاعه . فلما شعرَ أنه جُرِح ، أخرَجَ إبريقَ التّرياقِ ليشربَ منه شيئاً ، فأدركَه حجرٌ آخرُ أطارَ الابريقَ من يدِه وحطّمَه ، وأصابَه في خدّه ، فسقطَ عن ظهرِ الحصان . فخافَ الرّعاةُ أن يكونوا قد قتلوه ، فحملوا خرفانَهم المقتولة ، وقد بلغَ عددُها ستةً أو سبعة ، وساقوا قطيعهُم ومَضَوْا بأقصى سرعةٍ ممكنة.

وكان سانشو لا يزالُ فوق التلّةِ ينظُرُ إلى فعالِ سيّده ، وينتِفُ لحيَتَهُ لأنه ترك بيته وتبعَ هذا المجنون . ولما رآه ملقىً على الأرض ، جرى إليه ، ورفَعَهُ وهو يقولُ له :

— « ألم أنبّهْكَ ، يا سيّدي ، إلى أن الجيشَيْنِ ليسا سوى قطيعَيْنِ من الغنم ؟ ! »

— « وما هو ذنْبي أنا ، إن كان الساحرُ ، الذي يُلاحقُني ليحرِمَني النصرَ ، قد أحالَ كلَّ هؤلاءِ الجنودِ إلى أغنام ؟ إن كنتَ تريدُ أن ترْضِيَني فاركبْ حمارَكَ ، يا عزيزي سانشو ، واتبعْهُم ، وستجدُهم وقد عادوا إلى شكْلِهم الأصليّ بعد دقيقتين ! »

— « هناك ما هو أهمّ من ذلك : وهو تضميدُ خدّك ،

فاني أرى فمك ملآن دماً ! »

قال هذا وهو يفتش عن الخرج ، ولما أدرك أنه نسيه في الخان كاد يغمى عليه . وراح يشتم سيده ويشتم الساعة التي تبعه فيها ، وقرر العودة إلى قريته والتخلي نهائياً عن الجزيرة التي وعد بها . فأقبل عليه دون كيشوت يخفف عنه ويواسيه :

— « أيها الصديق الودود ! إن تراكم المصائب على هذا النحو ، يبشر بالفرج القريب فها نحن أصبحنا بدون خرج ولا خبز ولا مال والشر له آخر كالخير على السواء .. فلنسلم أمرنا إلى العناية الإلهية التي ترزق البعوضة في الهواء ، والدودة في الأرض ، والضفدعة الوليدة تحت الماء .. فهل تتخلى عنا ، نحن اللذين نحمل بين جنوبنا قلبين طاهرين وهي تضيء الشمس للأخيار والأشرار ، وتنشر الندى للعادل وللظالم ؟ ! »

فقال سانشو وهو في غاية التأثر :

— « أقسم أنك لبارع في التبشير ! .. فأنت تصلح أن تكون واعظاً أكثر منك فارساً متجولاً ! إنك ، في الحقيقة ، عليم بكل شيء ! »

— « في هذه المهنة ، يا عزيزي ، لا بد للمرء أن يعرف كل شيء ! »

— « ولكن ، قل ، يا سيدي ، هذه المصائب ، التي نزلت بنا ، . ألم تكن عقاباً على إثم ارتكبته في حق الفروسية ؟ .. فأنت أقسمت على أنك لن تأكل خبزاً على مائدة إلا متى سحقت جيش « مالاندران » أو « مانبران » ، لست أدري .. ولم تف بهذا القسم ؟ ! »

— « هذا صحيح ! .. ولكنني نسيت تماماً ! وأعلم أن الذي حدث لك في النزل ما هو إلا لأنك لم تذكرني بقسمي ! غير أني سأصلح خطأي عما قريب ! »

— « سأكون لك من الشاكرين ، لأن الأشباح لا تنتقم إلا مني ، عندما تخطىء أنت ! »

وكان الليل قد أدركهما ، وهما ماضيان في هذا الحديث . فظلا متابعين السير علهما يصلان إلى قرية يأويان إليها . ولكنهما لم يلبثا أن رأيا من بعيد مشاعل متوهجة تتقدم ببطء . فأوشك سانشو أن يغمى عليه ، وحتى دون كيشوت تولاه بعض الاضطراب . وكانت الأضواء كلما اقتربت زاد ضياؤها وزاد عددها . فبدأ سانشو يرتجف ، ووقف الشعر في رأس دون كيشوت . ولكنه قال لتابعه :

— « يا صديق ! لا بد أننا مقبلان على مغامرة هائلة أحتاج فيها لكل قوتي ! »

قال سانشو :

— « إذن فقد قُضي عليّ ! »

ثم بدآ يميّزان وجوهاً كبيرة بيضاء، تناهز العشرين وجهاً، وكانت جميعها فوق الخيول، وكانوا يتحدّثون بصوت منخفض، كأنّه خارج من القبور. ووراء هذه الجماعة كان يتقدّم تابوت أسود يتبعه ستّة فرسان يلفّهم لون الحداد من رأسهم حتى أسفل قوائم خيولهم. وكان من شأن هذا المنظر أن يُرعب من هو أشجع من سانشو، ولهذا فقد تقطّعت منه الأنفاس.

ولم يكن سيّده بأقلّ منه خوفاً، ولكن كتب الفروسية، التي سبق له أن قرأها، أسعفته في هذا الموقف، فخُيّل إليه أن التابوت يضمّ فارساً جُرح أو قُتل غيلة، فلا بدّ من الانتقام له.

ودون أن يدع لنفسه فرصة للتفكير، هيّأ رمحه وقفز إلى عرض الطريق، في مواجهة ذوي الوجوه البيضاء، وصاح، بصوت مخيف:

— « قفوا، أيها القادمون، وخبّروني من أنتم، ومن أين قدمتم، وإلى أيّ مكان تقصدون. ومن تحملون في هذا النعش؟ .. ففي ظنّي إما أن تكونوا جناة أو ضحايا لجريمة ما، فإن كنتم ضحايا أخذت بثاركم وإن كنتم جناة عاقبتكم على ما اقترفت أيديكم ! »

فردّ عليه أحد الرجال البيض قائلاً:

— « إننا في عجلة من أمرنا .. طريقنا طويلة، والنزل بعيد، وليس لدينا وقت لإرضاء فضولك الزائد . »

فردّ دون كيشوت بغضب:

— « ليكن لديك وقت لتكون أكثر تهذيباً، أو فاستعدّوا للمعركة ! »

قال هذا ومدّ يده إلى رسن البغلة، التي كانت سريعة النفور، فأجفلت وشبّت، ثم وقعت وتحتها راكبها. فلم يهتمّ به دون كيشوت، بل انقضّ على أحد الرجال، الذين يرتدون السواد، فضربه بالرمح وألقاه أرضاً، وتحوّل إلى غيره.

ولم يلبث هؤلاء الرجال، الذين لا يحملون سلاحاً ولم يتعوّدوا على القتال، أن تفرّقوا حاملين مشاعلهم وقد تخيّل الفرسان المرتدون السواد، والذين كانت تعيقهم معاطفهم الطويلة، أنّ دون كيشوت هو أحد أبالسة الجحيم، لذلك لم يقاوموه.

ولما رأى سانشو إلى كلّ ذلك، قال في نفسه: « لا بدّ أن سيّدي رجل مرهوب الجانب، كما يدّعي ! »

وكان الرجل الأول لا يزال تحت البغلة، فعاد إليه دون كيشوت، ووضع رمحه في صدره وأمره بأن يستسلم، فأجاب قائلاً:

— « إنني ، مع الأسف ، في حالة استسلام ، لأنني لا أستطيع الحركة .. وأخشى أن تكون ساقي قد كُسِرَتْ ! لا تقتلني إن كنت مسيحياً ، وإلا فإنك ترتكب خطيئة كبيرة ، لأنني مرسوم كاهناً ! .. ساعدني على القيام ، من فضلك وإحسانك ، فإن رجلي تكاد تنسحق تحت هذه البغلة ! »

عندها نادى دون كيشوت تابعه . ولكن سانشو لم يكن حريصاً على الوصول بسرعة ، لأنه كان مشغولاً بإنزال حمل من الأغذية ، عن ظهر إحدى البغال . فقد جعل التابع اليقظ من معطفه خرجاً حشاه بأفضل ما كان يحمله أولئك السادة من المؤن ، وبعد أن ربطه فوق ظهر حماره ، أقبل نحو سيده لمساعدته على رفع « المكلل » المسكين .

وتمكنا أخيراً ، بكثير من العناء ، من وضعه على ظهر بغلته ، ثم أعادا إليه مشعله ، ونصحه دون كيشوت باللحاق بزملائه ، ولكن سانشو استوقفه ليضيف قائلاً :

— « إذا أحب هؤلاء السادة أن يعرفوا من هو الشخص ، الذي هزمهم هذه الهزيمة المنكرة ، ففي وسعك أن تقول لهم إنه دون كيشوت الشهير ، أو الفارس ذو الوجه العبوس ! »

ومضى « المكلل » المسكين ، فالتفت دون كيشوت

إلى سانشو ، وسأله عن سبب إطلاقه هذا اللقب عليه . فأجاب قائلاً :

— « في الحقيقة أنني ، عندما نظرت إليك على ضوء هذا المشعل ، رأيت لك وجهاً بالغ الحزن ، ولعل ذلك بسبب ما تحملت من تعب ، أو ما خلفه الحجر في خدك ! »

— « إنني أعتبر هذه الفكرة ، التي خطرت لك ، إلهاماً من الله ، ولهذا سأطلق هذا اللقب على نفسي من الآن فصاعداً ، وسأرسم على ترسي وجهاً غريباً وحزيناً ! »

بعد هذا سار الاثنان بين رابيتين ، حتى وصلا إلى واد عميق ، وهناك وضع سانشو مؤنه على الحشائش ، وراح الاثنان يلتهمان اللحم البارد الممتاز ، الذي كان مخصصاً للسادة الإكليركيين ، وهم قوم ذواقة يعرفون كيف يغذون أنفسهم ، فتناولا ما يكفي للفطور والغداء والعشاء جميعاً .

٦ . الاستيلاء على خوذة مامبران ، ومغامرة السييرا مورينا

في اليوم التالي تساقطت بعض الأمطار . ولم يكن دون كيشوت وتابعه قد قطعا مسافة طويلة عندما شاهدا ،

من بعيد ، رجُلاً يضع على رأسه شيئاً يَبْرُقُ كالذَّهَب . فقال دون كيشوت :

— « يبدو لي أن الفارسَ ، الذي أراه هناك ، يضعُ على رأسه خوذةَ « مامبران » ، التي أقسمتُ أن أستوليَ عليها . ألا ترى هذا الفارسَ مُقبلاً علينا ، وهو يركبُ جواداً أشهبَ مُدَثَّراً ، ويَعْتَمِرُ خوذةً ذهبيّةً ؟ »

— « أنا أرى رجُلاً على حمارٍ رماديٍّ كحماري ، يضعُ على رأسِهِ شيئاً لمّاعاً ، لا أعرفُ ما هوَ ! »

— « هذا الذي لا تعرفُ ما هو ، إنما هو خوذَةُ « مامبران » .. هيا ، ابتعدْ من هنا بسُرْعةٍ . ودَعْني وحدي ، وسترى كيف سأنتهي من هذه المغامَرةِ ، دون إضاعةِ الوقتِ في الكلامِ ، وأستَوْلي على الخوذة ! »

وكان في تلك الناحيةِ قريةٌ ودَسْكرة متقاربتان من بعضهما إلى حدٍ كبير ، حتى إن نفسَ الحلاّق كان يزاولُ مهنته في الاثنتين معاً . وفي ذلك اليومِ كان أحدُ سُكّانِ الدَّسْكرة مريضاً ، وفي حاجة إلى فَصْد ، وكان رجلٌ آخرُ يريد أن يحلقَ لحيتَه . ولهذا توجَّهَ الحلاّقُ إلى القريَة ، ومعه عُدَّتُهُ : معه المشرَطُ والطَّسْتُ ، وهو من النحاسِ الأصفر . وفاجأتهُ الأمطارُ

في الطريق ، فخافَ على قبّعتِه ، التي لا بدّ أنها جديدةٌ ، أن يُتْلفَها الماءُ ، فوضعَ فوقَها الطَّسْتَ النحاسيَّ ، وهو الذي كان يُرَى ملتمِعاً على مسافةِ رُبْعِ فَرسخٍ . وكان الحلاّقُ يركبُ حماراً رمادياً ، كما قال سانشو ، ولكن دون كيشوت رأى فيه فارساً فوق جوادٍ أشهبَ مُبَقّعٍ ، وعلى رأسِهِ خوذةٌ من ذَهَب .

ولما اقتربَ الحلاّقُ المسكين ، جرى بطلُنا نحوَه ، دون أخذٍ أو ردّ ، ورُمحُهُ مسدَّدٌ نحوه . فما إن رأى الحلاّقُ ذلك الشَّبَحَ هاجماً عليه ، حتى قَفَزَ بسرعة من فوق الحمار ، وجرى بخفّةِ السِّنجاب ، هارباً في الحقول ، ومخلّفاً طَسْتَهُ على الأرض . فالتقطَ سانشو هذه الخوذَةَ النفيسةَ . قال وهو يُقلّبُها بين يديه :

— « الحقّ أنّ هذا الطَّسْتَ جديدٌ ، وهو يساوي ثمانيةَ ريالاتٍ على الأقلّ ! وتناولَه دون كيشوت منه ، وراحَ يجرّبُه على رأسِه ، مُديراً إيّاه يميناً ويساراً ، ثم قال :

— « يبدو أن « الوثنيّ » الذي صُنعَتْ له هذه الخوذَةُ كان ذا رأسٍ هائل ! .. ثم إني ألاحظُ أنها فقدَتْ جوانبَها المرفوعةَ ! »

وكان سانشو يحاولُ أن يمنعَ نفسَه من الضحك ، فقال له :

— « ما بكَ ؟ »

— « لا شيءَ ، يا سيّدي ! .. إنني أفكّر في الرأس الضخم للمالكِ القديمِ لهذه الخوذَة ، التي تُشبهُ طبَقاً مقعّراً ! »

— « من المعقولِ أن تكونَ هذه الخوذَةُ المسحورةُ قد وقعتْ بين يدَيْ شخص يجهلُ قيمتَها ، فذوّبَ نصفَها ، فأصبحتْ على ما ترى ، أي شبيهةً بصَحْن ، كما تقول . ماذا يهمّني ؟ إنني أعرفُ قيمتَها ، وسأعيدُها إلى سابقِ عهدِها .. وفي انتظارِ ذلك سأضعُها على رأسي كما هي ! »

— « إنك أنت السيّد ، يا سيّدي ! ولكن ، ماذا ستفعلُ بهذا الحمار ؟ .. أريدُ أن أقولَ : بهذا الحصان الأشهبِ المبقّعِ ، الذي يُشبه ، إلى حدّ بعيدٍ ، حماراً رمادياً ؟ »

— « ليس من عادتي أن أسلبَ الذين أتغلّبُ عليهم ، لذا دعْ هذا الجوادَ ، أو الحمار .. سمّه كما شئتَ ، وسيعودُ صاحبه لأخذه ! »

— « هل أستطيعُ ، على الأقلّ ، أن أستبدلَ برذعتَه

برذعةِ حماري ؟ »

— « لستُ متأكّداً من جوازِ ذلك .. ولكن إلى أن يتسنّى لي معرفةُ وجهِ الصواب ، إفعلْ ما بدا لك ! »

فما إن تلقّى سانشو هذا الإذنَ ، حتى عمَدَ إلى البرذَعةِ الجديدة ، فنزَعَها عن الحمارِ الرّماديّ المبقّع ، وزيّنَ بها حمارَه الذي بدا لعينَيه أجملَ بكثيرٍ مما كان .

بعد هذا أكلَ المسافران ما تبقّى عنهما في الليلةِ السابقة ، وتابعا مسيرَهما نحو الجبل .

ولم يَطُلْ بهما السيرُ حتى وصلا إلى جدولٍ ، كانت على مقربَةٍ منه جُثّةُ بغلةٍ أكلتْ نصفَها الغربان . وفي الوقتِ نفسِه ظهر على رأسِ الجبل راعٍ مُسِنّ ، وراح يصفّرُ ليجمعَ معزَه . فناداه دون كيشوت ، ورجا منه أن ينحدرَ إليهما . فلما أصبح أمامَهما قال :

— « أراهنُ أنك تريدُ أن تعرفَ سببَ وجودِ هذه البغلة هنا ! إنها هنا منذ ستّة أشهر ، ولا بدّ أنكما قابلتُما صاحبَها . »

قال دون كيشوت :

— « أيها الرجلُ الطيّب ! هل تعرفُ من الذي كان يملكها ؟ »

— « كل ما يمكنني قوله ، يا سيدي ، هو أننا رأينا ، منذ ستة أشهر ، شاباً ، طويل القامة جميل الوجه ، يصل إلى هذه الناحية ، راكباً هذه البغلة . وقد سألنا عن نقطة خالية من السكان تماماً ، فدللناه على هذه ، فانطلق بين الصخور ، وغاب عن أبصارنا . بعد أيام قلائل صادف أحد رعاتنا ذلك المسافر الشاب ، فرآه ممزق الثياب وقد لوحت الشمس وجهه ، فأصبح من الصعب التعرف عليه . من كل هذا استنتجنا ، يا سيدي ، أن هذا الشاب المسكين كان يصاب ، بين الحين والحين ، بنوبات جنون ... »

وفيما كان دون كيشوت ، الذي فاجأته القصة بقدر ما أثارت اهتمامه ، يشكر الراعي على تلك المعلومات ؛ رأى الشاب الممزق الملابس يخرج من بين الصخور ويتجه نحوهم ، وهو يغمغم كلاماً . فترجل دون كيشوت وجرى نحوه يحتضنه بحنان ويقول :

— « إنني مستعد لبذل حياتي من أجل أن أجد علاجاً لآلامك .. فهل تتكرم بأن تشرح لي ما تشكو منه .. إن عاطفتي تستحق ثقتك .. وأقسم على ذلك بسمة الفروسية التي تلقيتها ! »

في هذا الوقت كان الشاب يتفحصه من رأسه حتى القدم .. قال :

— « أوافق على أن أروي لك متاعبي ، على أن تعدني بعدم مقاطعتي ، فإنه من المستحيل على عقل ضعيف كعقلي أن يعود إلى وصل حبال أفكاره إذا قوطع ! » .

فوعده دون كيشوت بذلك .. وعندها بدأ قصته قائلاً :

— « إنني أدعى « كاردينيو » . وقد ولدت في إحدى المدن الأندلسية الكبيرة .. أسرتي نبيلة وثرية . وفي مدينتي كانت تعيش فتاة أغدقت عليها السماء كل هباتها ، وقد كانت مثلي نبيلة وغنية .. كانت تدعى « لوسند » . فذهبت إلى أبيها ورجوته أن يمنحني يدها . فتلقاني بكل مودة ، وقال إن مثل هذا الزواج من شأنه أن يشرفه ويشرف والدة الفتاة ، ولكن الطلب يجب أن يكون من قبل والدي ، ما دام لي والد ! فأسرعت إلى والدي ، فوجدته يقرأ رسالة ، فابتدرني ، حين رآني ، بقوله : « إن هذا الخطاب ينبئك بالذي يريد أن يفعله الدوق ريشار من أجلك . » والدوق ريشار هذا هو ، كما تعلم ، من كبار الشخصيات الإسبانية ، وله ممتلكات واسعة في الأندلس . وقد كتب إلى والدي يطلب إليه أن يرسلني إليه لأكون مرافقاً وصديقاً لابنه الكبير ، ويؤكد له أنه سيبذل كل جهد من أجل أن



دون كيشوت يصعد الجبل ٤

يُعِدُّني لمستقبلٍ عظيم . قال والدي : « كاردينيو ! عليكَ أن تسافرَ بعد يومين ! » فلم أجرؤْ على الردّ ! وذهبتُ في اليومِ التالي إلى والد « لوسند » أعلِمُه بما حدث ، ورجوتُ منه ألا يزوّجَ ابنتَهُ ، وينتظرَ عودتي . فوعدَني بذلك ، كما أقسمتْ لوسند على ألا تكونَ لغيري ، فودّعتُها بالدّموعِ ورحلْتُ .

« في قصر الدوق كان الابنُ الأكبرُ يُبدي لي كلّ صداقة واحترام ، ولكن الابنَ الثاني أحبّني محبّةً أعظمَ من محبّة أخيه ، وأعلنَ أنني أقربُ صديقٍ إلى نفسه . وبعد مدة سَمَحَ ليَ الدوقُ بالذّهابِ لرؤْيةِ أهلي ، وصَحِبَنِي ابنهُ الثاني ، دون فرناند ، الذي تلقّاه والدي بكلّ ترحاب ، بوصفهِ ابنَ الرجلِ الذي أحْسَنَ إليّ ووجدتُ لوسند باقيةً على العهد .

« وبعد بضعةِ أيّام أرسلتْ إليّ لوسند ، التي كانت تحبّ قراءةَ قِصَصِ الفروسيّة ، تطلبُ قِصّةَ « أماديس دي غول » ...

فانتفض دون كيشوت لدى سماعه هذه الكلماتِ الأخيرةَ ، ولم يتمالكْ نفسَه من القول :

— « أيها السيّد ! لو أنك قلتَ ، منذ بداية قصّتك ، إن السيدةَ لوسند تحب كُتُبَ الفروسية لأثبتّ لي أنها جميلةٌ ، عاقلةٌ ، لطيفةٌ ، ذكيّةٌ ، كاملةٌ .. لقد أصبحتُ

واثقاً من ذلك الآن ، ولسوف أؤيِّده ! .. عفوَك عنّي لأنّني قاطعتك ، ولم أبرّ بوعدي .. ولكنني لا أستطيعُ السيطرةَ على نفسي عندما تُذكَرُ الفروسية أمامي ! واصلْ قصّتك ، من فضلك ، وسأستمعُ إليكَ بكلّ انتباهٍ واهتمام ! »

وفيما كان دون كيشوت يتحدّث ، كان الشابّ قد ترك رأسَه يرتخي على صدره ، وراح ينظُرُ إلى الأرض حالماً مستغرقاً . وفجأةً عادتْ إليه نَوْبة الجنون ، فقفزَ إلى الوراء ، والتقطَ حَجَراً وقذَفَه ، بكل قوّته ، على صدرِ دون كيشوت ، الذي انقلبَ على ظهرِه .

وأراد سانشو أن ينتقمَ لسيّده فهجَمَ على كاردينيو ، ولكن هذا سرعانَ ما ألقاه أرضاً ، وراحَ يرقُصُ فوقه . ولما تعبَ من القتال ، تركَهُما وسار نحو الصّخور .

هنالك نهض بطلُنا عازماً ، رغمَ كلّ ما حدث ، على سَماع بقيّة القصة ، فركب « روسينانت » ، وسارَ في أثرِ كاردينيو .

٧ . دون كيشوت يقلد « الغامض الجميل »

بينما كان دون كيشوت ماضياً في صعود الجبل ، وسانشوْ يتبعُه ويتنهّد ، قال لتابعهِ :

— « إنني أتوغّلُ في هذه الأماكنِ الخالية ، لتنفيذِ خطّة سامية ، من شأنها وحدَها أن تمنحني مجداً لم يَحظَ به أشهرُ الفرسان ! »

— « وهل تتعرّضُ لأخطارٍ كبيرةٍ ، في هذه الخطة ، يا سيدي ؟ »

— « إن هذا يتوقّفُ على همّتك ، وعلى المدّةِ التي ستُنْجِزُ خلالها المُهمّةَ التي سأشرّفُك بتكليفك بها ! .. إقترب .. سأطلعك عليها !

« أنت لا تجهلُ ، يا صديقي ، أن « أماديس دي غول » الشهيرَ كان أكملَ فارسٍ متجولٍ بين فرسانِ العالم . ومن أجملِ الأعمالِ ، التي قام بها ، والتي برهنتْ عن شجاعته ووفائه ، ما فعلَهُ عندما وقعت « أوريان » الحسناءُ في حُبّه ، فقد أوى إلى « الصخرة الجرداء » حيث عاش مدةً طويلةً تحت اسم « الغامض الجميل » ، وذلك لتعذيبِ نفسه . وإنه لأسهلُ عليَّ أن أقلّدَ أماديس العظيمَ ، في هذا العِقابِ من أن أقلّده في تحطيمِ العمالقةِ وهزْمِ الجيوش .

— « لكنك قلتَ ، على ما أظن ، إن هذين السيّدين إنما قاما بهذا العملِ الرائع لأسبابٍ واضحة ، وأنا لا أرى سبباً يدعوكَ إلى مثل ذلك ! »

— « أنت على حق ! .. ولكنَّ هذا بالذاتِ هو الذي

يجعلني متفوقاً عليها . لقد قضي الأمرُ وأصبحتُ مجنوناً ، يا سانشو ! .. أجل .. يا بُنيَّ العزيزَ ! .. أنا أريدُ أن أكونَ مجنوناً ! .. وسأظلّ كذلك إلى أن يأتيني الردّ من لسيدة « دولسينه » على الخطاب الذي سأكلّفك بحمله إليها ! فإن كان في جوابها تقديرٌ لما أحمله لها من الحبّ استعدتُ عقلي ، لأزدادَ شعوراً بسعادتي ، وإذا احتقرتني القاسيةُ ، احتفظتُ بجنوني كيما أخفّفَ من آلامي ! .. ومن هذا ترى أن النتيجةَ ممتازةٌ في الحالتين ! وفي كلتا الحالتين لا يمكن إلا أن أكونَ أنا الرابحَ ! » .

وكان دون كيشوت ، في تلك اللحظة ، عند أسفل جبلٍ عالٍ ينفصل عن باقي الهضاب ، ويرتفعُ وسطَ مرجٍ أخضرَ يرويه جدولٌ رقراق . وقد أعجبَ الفارسُ بالخضرةِ الممتدة ، والأزاهيرِ البريّة ، والأشجار المنتشرة هنا وهنالك ، والماءِ العذبِ ، فاختار ذلك المكان ليقضي فيه مدةَ التعذيبِ ، الذي ارتضاه لنفسه . وعندها هتف :

— « دولسينه دو توبازو ، يا ضياءَ لياليَّ ، يا جاذبةَ قلبي ، يا أيتها النجمةُ التي ترافقُ أسفاريَ الطويلةَ ! أنظري إلى الحالِ البائسة التي أوصلني إليها بُعدُك عني ! .. وأنتَ ، يا تابعيَ الأمينَ ، يا رفيقَ أمجادي ! إياكَ أن تنسى شيئاً مما تراني أفعلُه ، لتروِيَهُ لمن هي أصلُ شقائي وآلامي ! »

ثم ابتعدَ دون كيشوت قليلاً ، وأخذ في كتابةِ رسالته إلى دولسينه . وبعد أن انتهى منها ، دعا إليه تابعَهُ ، وطلبَ إليه أن يحفظَها عن ظَهْرِ قلبٍ ، فقال سانشو :

— « لا ترجُ مني أن أحفظَ كلمةً واحدةً ، فإن لي ذاكرةً في غاية الرداءة .. ولكن اقرأ لي ، على أيِّ حالٍ ، لأتلذّذَ برسالتك ! »

— « إليك هذه الرسالة ! »

« أيتها السيدةُ المعظمةُ الرفيعةُ الشأنِ !

إن الذي يقتلُهُ الأسَى بعيداً عنك ، والذي يتألمُ من الجُرْحِ العميقِ في قلبه ، ولكنه يحبّ آلامَه ، يرجو لك ، يا « دولسينه » الرقيقةُ ، ذلك الهدوءَ الذي ضاعَ منه . إذا لم يستجبْ إليّ جمالك ، وصدّتني كبرياؤُك ، فاسوفَ أرزَح ، رغم تجلّدي ، تحت وطأة الآلام . إن تابعي الأمينَ سانشو سيصفُ لك ، أيتها العدُوّة المعبودةُ ، حالةَ الشقاء التي أنا فيها . إن حياتي التعسةَ ملكُ يمينِك .. كلمةٌ واحدةٌ منك تصونها ، وكلمةٌ تقضي عليها القضاءَ المبرمَ ! مُري ، فليس أحلَى على قلبي من الرضا بقسوتك !

لكِ حتى المات
الفارس ذو الوجه الكئيب »

قال سانشو :

— « وحياةِ والدي ، لم أسمعْ قطّ مثلَ هذا ! إنك لشيطانٌ في التعبير ! هاتِ الرسالةَ ، وسأمضي في الحال ! »

— « إنتظرْ ! إنتظرْ ! أريدُ ، على الأقلّ ، أن تراني عارياً ! سأقوم أمامك ببعض الأعمالِ الجنونيةِ لتكونَ شاهداً لي أمام « دولسينه » .

قال هذا وراح يَخْلَعُ ملابسَهُ قطعةً قطعةً ، حتى أصبح عارياً إلا من القميصِ الداخلي . ثم قفز قفزتين في الهواءِ . وتشقلبَ مرّتين . فلم يشأْ سانشو أن يرى مزيداً من هذه الحركاتِ ، فساقَ حمارَهُ ومضى .

بعد أربع وعشرين ساعة وصل التابع إلى الخانِ المشؤومِ ، الذي قضى فيه وقتاً عصيباً يومَ أن تسلى الفتيانُ بقذفهِ في الهواءِ فوقَ البطانية . وما إنْ وقع نظرُه عليه حتى أصابَتْهُ الرجفة . ولكنه كان جائعاً ، فظل واقفاً في مكانه ، ينظر إلى الباب ، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل . في هذا الوقت بالذات خرج رجُلان من النُزُلِ . قال أحدُهما للآخر :

— « أيها السيدُ المُجازُ ! أليس هذا هو سانشو بانسا ؟ »

فأجاب الكاهن :

— « بلى ! إنه هو بعينه ! » .

وتقدّم الكاهن والحلاق — إذ كانا هما بالذات ،

صديقَيْ دون كيشوت — نحو سانشو .. قال له الكاهن :

— « أين خلّفْتَ سيّدك ، أيها الصديق سانشو ؟ »

— « إن سيدي بين هذه الجبال يقضي مدة التعذيب ، الذي فرضه على نفسه . أما أنا فماضٍ بهذه الرسالة إلى السيدة دولسينه ، بوصفي سفيراً له ، لأنه يموت حباً بها ! »

قال الكاهن ، وقد عَجِبَ من هذه النوبة الجديدة :

— « علينا أن نُخرجَه من بيدائه ! سندرسُ المسألةَ على الأكل .. هيّا بنا ! »

قال سانشو :

— « أنا لا أدخلُ إلى هذا النزل .. سأخبرك بالسبب في يوم من الأيام ! .. أما الآن ففي استطاعتِكُما أن تُرْسِلا لي الطعامَ إلى هنا ! »

وبعد تفكيرٍ طويلٍ ، اهتدى الكاهن إلى طريقة يُعيد بها صديقَه دون كيشوت إلى قريتِه ، وهي أن يرتدي ملابسَ فتاة « متجولة » ويغطّي وجهَه ، في حين يتنكرُ الحلاقُ ، المعلمُ نيقولا ، في زيّ تابعٍ للفتاة . بعد ذلك تذهب الفتاةُ وترتمي على قدَمَيْ دون كيشوت ، وتطلبُ منه أن يُجيرَها ويثأرَ لها . ويَعِدَها بألا يطلبَ منها كشفَ وجهها إلا متى شاءت . وبهذه الطريقة يمكن أن يعود الصديقان بصديقهما إلى قريته

وقد نجحت الحيلة تمام النجاح

الجزء الثاني

١ . رحلة جديدة

بعد العودة إلى القرية ، ظل الكاهنُ والحلاق ، قرابة شهرٍ ، مبتعدَيْن عن دون كيشوت ، حتى لا يُذكّراه بالأشياء الماضية . ولكنهما كانا ، مع ذلك ، يلتقيان ، في السرّ ، ابنةَ أخيه وخادمتَه ، ليوصياهما بالسهرِ عليه ، والعناية بتغذيتِه ، وكانت المرأتان تتبعان التوصياتِ بكلّ دقة . وقد بدأتا تفخران بأنهما أعادتا إلى دون كيشوت صوابَهُ ، لما رأتا من الهدوء الذي ظهر عليه . وقد شجّعتْ هذه الأخبار الصديقَيْن على زيارةِ صديقِهما ، بعد أن تواصيَا بعدم التعرّضِ لذكرِ أيّ شيءٍ يَمسّ الفروسيةَ ، حتى لا يتسببا بنكسة لمريضهما .

ذهبا إلى جارهما فوجداه في سريره ، وقد ارتدى قميصَ نومٍ صوفياً أخضرَ اللون ، ووضع على رأسه قَلَنْسُوَةً حمراءَ ، وكان نحيلاً أعجفَ إلى الحد الذي بدَا معه أشبه بالمومياء .

وقد تلقاهما دون كيشوت بالترحاب ، وتحدّث إليهما بكلامٍ موزون، حتى لم يَعُدْ لديهما شك في أنه استعادَ كلَّ قُواهُ العقليةِ . وكانت المربيةُ وابنة أخي دون كيشوت

في غاية الفرحة . وقد شعر الكاهنُ بالرضا التام عن حالة صديقِهِ ، حتى إنه رأى أن في استطاعتِهِ أن يُشيرَ من بعيدٍ إلى شؤونِ الفروسية . فزعمَ أنه تلقى أنباء من مدريد تفيدُ بأن الأتراكَ يستعدون للحرب بكل همة . وتُضيفُ هذه الأنباء أن صاحبَ الجلالة . وقد أقلقَتْهُ تلك الاستعدادات، التي تهددُ بالخطرِ كلَّ العالمِ المسيحي ، طلبَ أن توضعَ سواحلُ نابولي وصِقِلِّيَةَ في حالةِ دفاع .

قالَ دون كيشوت بفتُور :

— « إن جلالتَهُ على حق ، ولكنْ لا شكَّ في أنه لا يفكّر في الوسيلةِ الأكيدةِ لدحْرِ الأعداء .. ليس أمامَهُ سوى طريقةٍ واحدة لتحقيق هذا الهدف ، وهي أن يدعُوَ جميعَ الفرسانِ الإسبانيين المتجولين إلى التجمّع . وحتى لو جاءَهُ ستّةٌ فقط من هؤلاء الفرسان ، لكانوا كافين للتغلب على الأتراك .. بل إنني أعرفُ فارساً يستطيعُ بمفرده أن يهزمَهم ! »

فصاحت المربية :

— « لقد قُضِيَ علينا ! فها هو سيدي يريدُ أن يكونَ فارساً مُتجوّلاً مرّةً أخرى ! »

فنظر إليها محدّقاً ، وقال باستغراب :

— « مرة أخرى ؟ ! .. إنني لم أتوقفْ لحظةً عن

أن أكونَ فارساً متجولاً ، وسأموتُ وأنا على هذه الصفة ، إن شاء الله ! »

فقال الكاهن :

— « إنني أرى نفسي مُضْطَرّاً ، أيها الجارُ العزيزُ ، إلى الاعترافِ أمامك بأنني أشكّ أحياناً في وجودِ هؤلاء الفرسانِ المشهورين . وفي ساعاتِ شكّي هذا أذهبُ إلى حدّ الظنّ بأن قصصهُم ما هي إلا أكاذيب لفقها أناسٌ فارغون ، لا يستطيعون أن يُعْطوا شيئاً أفضل منها ! »

— « يا لله ! أمِنَ الممكنِ أن تقعَ أنت أيضاً في هذا الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون ؟ ! إن قليلاً من البحث والتفكيرِ كافٍ لتبديد هذا الخطأ . فمنذُ أن تعمقتُ في دراسة هذه المسألة ، أصبحتُ على اقتناعٍ تام بوجودِ هؤلاء الفرسان ، إلى درجةِ أنني أستطيع معرفتهم ، لو تسنى لي أن أراهم ... »

وهنا ثارت ضجةٌ عند بابِ المنزل قطَعَتْ هذا الحديث . فقد كانت تُسْمَعُ صيحاتُ المربيةِ وابنةِ أخي دون كيشوت ، اللتين كانتا تريدان منعَ سانشو من الدخول لرؤيةِ سيده . كانتا تقولان له :

— « ماذا تبغي منه أيها الكسول ؟ ! أتريدُ إفسادَهُ مرة أخرى ، وحَمْلَهُ على الضربِ في مجاهلِ الأرض ؟ ! »

— « إنه هو الذي أفسدَني ، يا مربية الشيطان !

فقد وعدني بجزيرةٍ غنيةٍ جميلةٍ ، وحتى الآن لم يَصِلْ إلى جيبي فلسٌ واحد ! »

— « إذن فأنتَ تريدُ جُزُراً ! .. سنعطيك جزراً ، أيها الشَّرِهُ اللعين ! .. وهل كانت الجزر إلا من أجل أمثالك ؟ ! »

فجرى دون كيشوت . على هذه الأصوات ، وأمر بإدخال سانشو ، فاستأذن الجاران في الانصراف . وقد ثَبَتَ لهما ألاّ أمل في شفاءِ جارِهما .

وما إن أصبح السيدُ والتابعُ وحدَهما ، حتى أقفلا الباب على نفسَيْهما . قال دون كيشوت :

— « ماذا يقولُ عني الناس في القرية ؟ ما رأيُ الفرسانِ والنبلاء والشعبِ في إقدامي ، في لياقتي ، في انتصاراتنا ؟ هل يُؤيِّدونَ المجهوداتِ التي أبذُلُها لإحياء الفروسية ؟ أخبرْني بكل شيء . يا سانشو . بصراحة الخادم المخلص ، ولا تعامِلْني كما يُعامَلُ أولئك الأمراءُ ، الذين ، لسوءِ حظّ الشعوب . تُخْفَى عنهم الحقيقةُ . »

— « بما أنك تريدُ . يا سيدي ، أن تعرفَ كلّ شيء ، فسأكونُ صريحاً معك ، ولكن عِدْني ألا تغضبَ ! »

إنني أعدُك بهذا .. تكلّمْ بحرية . »

— « ينبغي أن تعلم ، قبل كل شيء ، أن الجميع ، تقريباً ، متفقون على اعتبارِكَ مجنوناً ! .. وهم يَرَوْنَ أني

لا أقلَ عنك جنوناً . أما بخصوص بَسالَتِكَ ومآثرِك .
فالبعضُ يقولون : « إنه مجنون لذيذ » . وآخرون يقولون :
« إنه شجاع ، ولكنه مغلوب باستمرار » ... على أي
حال فإن آراءَهم فينا سيئةٌ . »

— « ليس هذا بالأمر الغريب ! فإن قيصرَ والاسكندر
وحتى « غالاور » عانَوْا من الحسَد ! لهذا أنا لا أهتم
بهذه الناحية . »

— « إنني لم أقلْ لك شيئاً حتى الآن ! .. وإذا كنتَ
راغباً في معرفة الباقي فسآتيك بطالب من « سالامانك » ،
هو ابن بارتيلمي كاراسكو ، وقد وصل أمسِ إلى هنا ،
ليرويَ لك ما حدثني به : لقد قال لي إن قصتك قد طُبِعت
وفيها اسمُك ، دون كيشوت دي لامانش ، وأنا مذكورٌ
في القصة باسمي ، سانشوْ بانسا . وفي هـذه القصة
يذْكرون مغامراتِنا ، بل يَرْوُونَ الأحاديثَ ، التي
دارت بيني وبينك .. ولستُ أدري كيف استطاعوا أن
يعرفوا ذلك ! .. سآتيك بهذا الطالب ! ! »

— « سأكون في غاية السرور ، يا سانشو ، لأنني
أتحرّقُ لمعرفة كل التفاصيل ! »

وخرج سانشو في الحال ، ثم عاد ومعه الطالب الذي
تحدث عنه ، وكان شاباً شاحبَ الوجه ، نحيلَ الجسمِ ،
يناهزُ الرابعةَ والعشرين من العمر . وكان حديدَ الذكاء
ساخراً من الدرجة الأولى .

عندما دخل الشابّ ، ركع على ركبتيه أمام دون كيشوت
وقال :

— « إسمح لي ، أيها السيد ، بأن أقبّلَ يدَيْكَ
القويتين ، وأحيّيَ في شخصك أشْجعَ الفرسانِ المتجولين ،
السابقين منهم واللاحقين ! »

قال دون كيشوت وهو يرفعه :

— « أصحيحٌ أنّ مغامراتي قد طُبِعَتْ ؟ »

— « أوَ تسألني إنْ كان هذا صحيحاً ، أيها السيد ؟ ! ..
بل اسألْ الناسَ في البرتغال ، في فالنسيا ، في برشلونة
حيث نزلَ إلى السوقَ أكثرُ من اثني عشر ألف نسخة
من هذا الكتاب ، الذي تُرجِمَ إلى كافة اللغات الأوروبية ! .. »

— « قل لي ، يا سيدي حامل البكالوريا ، أيّ عملٍ
من أعمالي يستأثر بالاعجابِ أكثرَ من غيره ؟ »

— « إن الناسَ غير متفقين على رأيٍ واحد ، في هذا
المجال ، فالبعضُ يفضّلون مغامرةَ طواحينِ الهواء ،
التي حسبتَها عمالقةً . والبعضُ الآخر يُقدّم عليها قصةَ
ذينك الجيشين العظيمين ، اللذين تحوّلا إلى قطيعين من
الخرفان ! »

— « ولكنْ .. ألا ينتظرون مرحلةً جديدة ؟ »

— « بلَى ! .. إن الجمهورَ يطالبُ بها .. والمؤلّفُ
تشغَلُهُ ليلَ نهارَ ، ولكنه يبحثُ عن مادةٍ للكتابة

فلا يجد ، حتى بات يائساً من العثور عليها ! »

فقاطعه سانشو قائلاً :

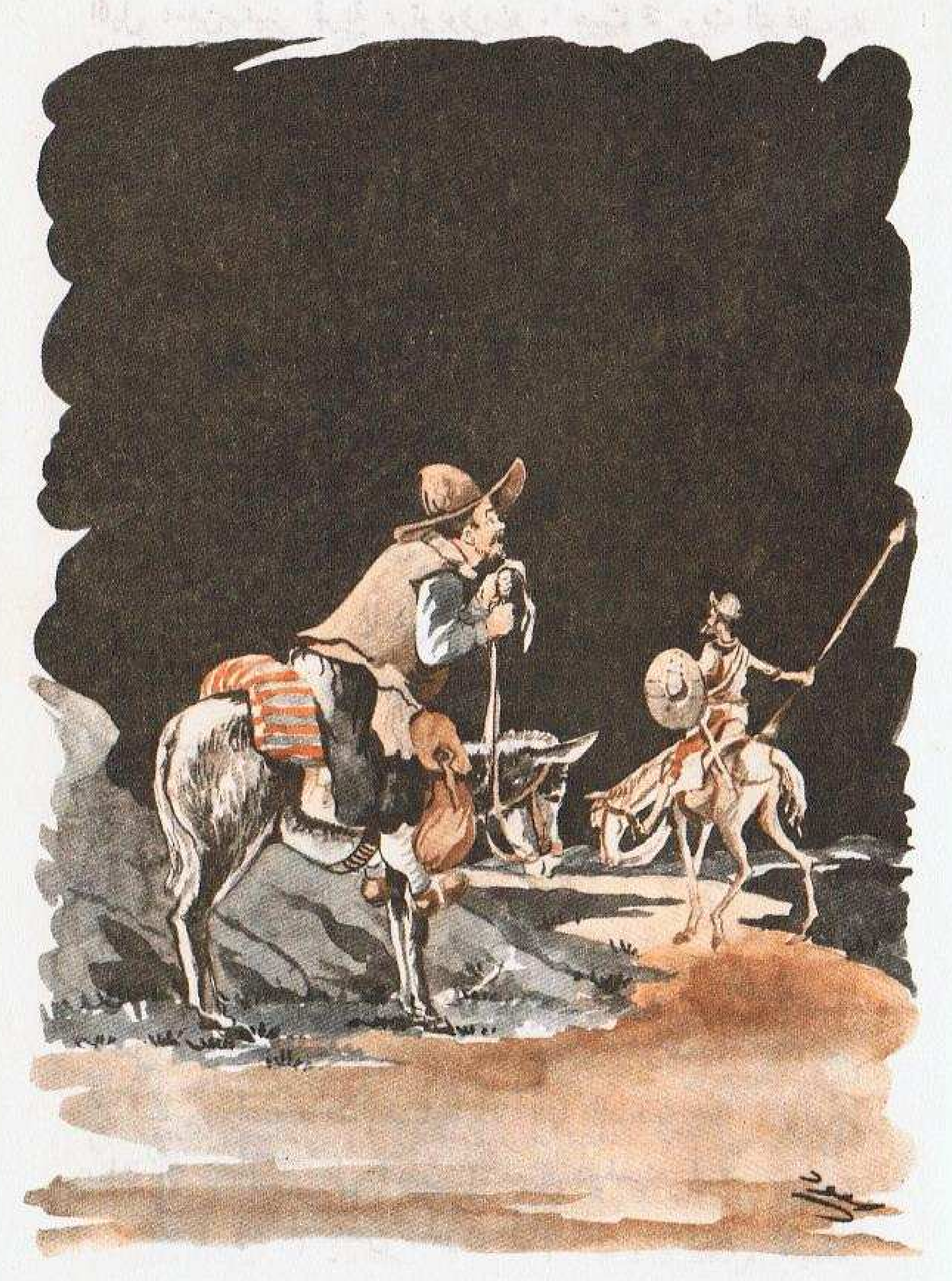
— « أراهنُ على أن هذا المؤلّفَ الغبيّ يتصورُ أننا سنبقى هنا مكتوفي الأيدي ! لكَمْ هو يعرفنا ! .. لن يمضي وقتٌ طويلٌ حتى نُقدّمَ ما يُشغِلُه ، بعون الله ! .. ولو أن سيدي استمعَ إلى رأيي ، لكنّا الآن في البراري ! »

وهنا صهل « روسينانت » في إسطبله .. فانتفضَ دون كيشوت لدى سماعه هذا الصهيل ، ورأى فيه فألاً حسناً ، فقرر الخروجَ قبل مُضيّ ثلاثة أيام . وفي الحال أطْلَعَ حاملَ البكالوريا الماكرَ على خُطّتِه ، فأيّدها كل التأييد . وافترق الثلاثة بعد تعيين ساعة الرحيل ، والتواصي بالكتمان .

وفي عصْرِ اليوم الثالث ركب دون كيشوت روسينانت ، وركب سانشو حمارَه الودود ، واتخذ الرفيقان طريقَهما نحو قريةِ توبوزو . وقد رافقهما الطالبُ بعض المسافة ، ثم عانق دون كيشوت مودّعاً ، وراجياً أن يُزوّدَهُ بأخباره ، وعاد أدراجَهُ بعد ذلك ، إلى القريةِ ليُعْلِنَ للكاهنِ والحلاقِ أن دون كيشوت قد بدأ رحلتَهُ .

قال دون كيشوت لسانشو :

— « أخشى ، أيها الصديق ، ألا نتمكن ، في سوادِ



في الطريق الى قرية توبوزو

الليل ، من تمييزِ قرية « توبوزو » ، حيث قررتُ التوقفَ ، من أجلِ رؤيةِ دولسينه الحسناء والركوعَ أمامها لأستمدَّ قوة وعزماً جديدين ! »

وبالفعل لم يَصِلْ مسافرانا توبوزو إلا في منتصف الليل ، وقد لَفَّ القريةَ السكونُ . لم يكن يَفْصِمُ ذلك الصمتَ الشامل سوى نُباحِ الكلابِ ، ونهيقِ الحميرِ ، وقُباع الخنازير ، ومُواءِ الهررة .

وقد بدأتْ شجاعةُ سانشو تتبدّد ، بل إن دون كيشوت نفسَهُ رأى في تلك الأصوات ، تشقّ سكينةَ الليل ، نذيرَ شُؤْم . فقال لتابعه :

— « أسْرِعْ ، يا بني ، وقُدْني إلى قصر دولسينه ! »

فحار سانشو في أمره ، لأنه لم يعرف في حياته منزل تلك السيدة العظيمة .. فقال لسيده :

— « سيدي ! ليست هذه الساعةُ ساعةَ زيارات ، ولا بد أن باب القصر مُقْفَل ، فإذا أحدثنا ضجة نبّهنا القرية كلها ! »

في هذه اللحظة ، مرّ بقربِهما فلاح ، في طريقه إلى الحقل ، ومعه بغالُه . فقال له دون كيشوت :

— « أسعدْتَ صباحاً ، أيها الصديق ! .. أرجو منك أن تدُلّني على قصرِ الأميرة دولسينه ! »

— « إنه لم يمضِ سوى أيام على وجودي في هذه

القرية ، حيث أعملُ فلاحاً عند مزارعٍ ثريّ ! .. ولكن هنا ، قبالتَنا ، يقومُ منزلُ الكاهنِ وبجانبه منزل القندلفت ، ولا شك أنهما يعرفان هذه الأميرةَ ، أما أنا فلم أسمع قط بذكرها . »

قال الفلاح هذا ومضى عنهما . فلما رأى سانشو سيده حائراً قال له :

— « سيدي ! إن الفجرَ قد اقترب ، وفي رأيي أن نأويَ إلى غابةٍ قريبةٍ من هنا ، وفي الصباح أذهب بمفردي للتفتيش عن القصر ، وسأجده حتماً ، فأقابلُ السيدة وأعود إليك بأوامرها ! »

— « سانشو ! إن رأيك مليء بالحكمة ! »

فأسرع سانشو ، الذي كان حريصاً على الابتعادِ عن القرية ، في السيرِ أمامَ سيدِه إلى غابةٍ تبعدُ نحوَ ميلين عن ذلك المكان . وعندما أشرقت الشمسُ استعدّ التابعُ للقيام بمهمته ، فزوّدَه سيدُه بوصاياه قائلاً :

— « هيّا ، يا بُنيّ ! سِرْ لأداء مهمّتك ، ولا تَعُدْ قبل أن تقابلَ ربّةَ الجمالِ الأسمى ، التي تتربعُ على عرشِ هذا القلب ! ولا تنسَ ، يا أسعدَ تابعٍ في الوجود ، أن تتنبّه لكل حركةٍ وكل سكنةٍ لشمسي المضيئة الرائعة ! »

— « في وسعك أن تعتمدَ عليّ ، فأنا مُدْرِكٌ لكل ما تقول ! »

وساق الخادمُ حمارَه تاركاً دون كيشوت متكئاً على رمحه ، رافعاً عينيه نحو السماء . وبعد أن قطع مسافةً ، عطف إلى غابة ، فأوقفَ حمارَه فيها . وجلس عند جذعِ شجرةٍ وراح يفكرُ في أمر هذه المهمة الصعبة التي كلّف بها .

وظل يستريحُ في مكانه عدة ساعات ليوهم سيدَه بأنه ماض في تنفيذِ أمره . وفيما هو كذلك ، رأى ثلاثَ فلاحاتٍ قادماتٍ من توبوزو ، وكلٌّ منهنّ تركب حماراً . فاعتلى حمارَه ، وسار نحو سيده . ولما وصل ، صاح من بعيد :

— « أبشر ، فإني أحمل لك أنباءً سارّةً ! »

— « ماذا ؟ قل ، يا بني ! .. أسرع ! .. خبّرني إن كان عليّ أن أشيرَ إلى هذا اليوم بحجر أبيض أم بحجر أسود ؟ »

— « أشِرْ إليه بحجر أحمر ، فهأنذا أعلن لك أن السيدة دولسينه آتيةٌ إليك تصحبها اثنتان من مرافقات الشرف .. فاركبْ جوادَك واستقبلِ الأميرةَ ، التي توشك أن تصل ! .. لله ما أروعها ، يا سيدي ! .. ثم أيّ ثوبٍ ثمين هي ترتدي ! .. إنها ومرافقتيها يبْرُقن بريقاً مما عليهن من الذهب واللؤلؤ والماس والياقوت ! .

إنني لا أزالُ أشعرُ بألمٍ في عينيّ من شدةِ البريق ! »

— « هيا ، يا بني ، نستمتع بهذه المناسبة العظيمة ! .. إنني أعِدُك منذ الآن بأنّ أسلابَ أولِ معركةٍ ستكونُ من نصيبك أنت ! »

وبينما كان الاثنان يسيران ، كان دون كيشوت يجولُ بعينيه في كافةِ الأنحاء ، فلم يرَ سوى الفلاحاتِ الثلاث سائراتٍ في الطريق ، فالتفت إلى سانشو وقال له ، والقلقُ بادٍ عليه :

— « هل تركتهن بعيداً عن المدينة ، أيها الصديق ؟ »

— « كيف ؟ .. هل أنتَ أعمى ؟ ! »

— « إنني لا أرى سوى ثلاثِ فلاحاتٍ على حمير ! »

— « تلك ، والله ، حكايةٌ عجيبة ! .. إنني لم أكنْ أتوقعُ هذا ! « ماذا دهاك، يا سيدي ؟ ! هؤلاء الأميرات الثلاث ، المكتسيات بالذهب ، والراكبات على مطايا بيضاء ، لا ترى فيهن سوى ثلاث فلاحات على ثلاثةِ حمير ؟ ! .. ماذا أقول ؟ ! .. لا بد أنك مريض ! »

— « في الحق ، إنني أخشى أن أكون مريضاً ، فأنا أقْسِمُ لك أني نظرت جيداً فلم أرَ غير ما قلت لك ! »

— « إذن فعليك أن تؤمنَ بما قلتُه لك ، وألا تبوح

به لأحد . وأنا سأكتمُ أيضاً هذا السرّ ! .. والآن قدّمِ احترامَكَ للأميرة ! »

قال هذا وتقدم من الفلاحة التي كانت تسيرُ في الوسط ، فأوقفَ حمارَها ، ثم جثا على ركبتيه ، وهتف :

— « أيتها الملكة ! .. يا دوقةَ الجمال ! أتوسلُ إلى عَظَمَتكِ أن تشملَ بعطفِها الفارسَ ذا الوجهِ الكئيب ، الذي ترينه هناك ضائع الصوابِ في حضرتك ! »

قالت الفلاحة :

— « تَنَحَّ عن طريقنا ، ودعنا نسير ، فلدينا ما هو أهم من الاستماع إلى هذه السخافات ! »

فأجاب التابع :

— « أيتها الأميرة ! كيفَ لم تتأثري بمرأى عمودِ الفرسان المتجولين وهو يبدي لك الخضوع ؟ ! »

— « ألن تكُفَّ عن هذا ؟ أم تريد أن أريك أنني أعرف كيف أحُسّ الحمير ؟ ! .. أنظري ، يا أختي ، إلى هذين الحقيرين ، اللذين يبغيان أن يسخرا منا ! »

فقال دون كيشوت لتابعه :

— « سانشو ! إنهضْ ، يا بني ، إنهض ! لقد وَضُحَ لي تماماً إلى أيّ حدٍ بلغ الهياج بأعدائي ! .. إنهم يريدون موتي ، وسيكونون به سعداء ! .. وأنتِ ، يا مليكةَ هذا القلبِ المحطّم .. يا أيتها الضحية البريئة للسَّحَرَةِ

القُساة ، الذين تجرأوا ، من أجل الانتقام مني ، على تحويل وجهِها الإلهي الجمالِ ، إلى وجهِ قرويةٍ ، هلاّ تكرّمتِ وشرّفتِني بنظرة واحدة ! .. ولكن ، وأسفاه ! لعلّ باباً من أبواب السّحْرِ قد غيّر معالم وجهي في عينيك ، فلم تميّزيه ، ولكن إذا كان ثمّةَ تغييرٌ في الوجه ، فإن روحي ما زالت على حالها ! إذ ليس للسحرة سُلطانٌ على الحب الطاهر « الثابت » الخالد الذي تحمله لك وفي أتُونِهِ تحترق ! »

قالت الفلاحة :

— « ماذا يقول هذا المجنون ؟ ! .. هيا ، ابتعد عن طريقنا ! .. هيا ! »

وضربت بطن حمارها بكعبيها ، فانطلق الحمار راكضاً . غير أن البرذعة ، التي لم تكن مُحْكَمَةَ الشدّ على ظهر الحمار ، انقلبت وأصبحت عند بطنه ، فسقطت الأميرة ، ورجلاها في الهواء . فطار دون كيشوت إلى نجدتِها .. رفعها عن الأرض ، بينما تولّى سانشو إعادةَ البرذعة ، كما كانت ، وتثبيتها . وأراد أن يحملَها ويضعَها على ظهرِ حمارها ولكنها قفزتْ فوق ظهر الحمار ، وانطلقت هاربةً بخفة العصفور . وتبعتَها رفيقتاها بنفسِ السرعةِ ، وغِبْنَ جميعاً عن الأنظار

٢ . معركة وانتصار

نزلَ بطلُنا وتابعُه في مكان عظيمِ الأشجار ، ثم تناولا عشاءَهما مما يحملانه من الزّاد . واستأذنَ سانشو في أن يُغلِقَ نافذتيه ، أي أن ينامَ ، وذلك بعد أن ربط الفرس والحمار في جانب مُلْتَفّ الأعشاب .

وبينما كانا يرْقُدانِ ، كلٌّ عند جذعِ شجرة ، انتبهَ دون كيشوت فجأةً على صوت حركةٍ في الغابة . فأصاخ السمعَ ، وحدّد البصرَ ، فرأى ، من خلال الأشجار ، رَجُلَيْنِ على حصانين . ترجّلَ أحدُهما وقال للآخر :

— « إنزع لجامَي الفرسَيْن ، واترُكْهُما يرْعيان في هذا المرج ، فهذه الغابةُ الهادئة أصلحُ مكانٍ لعلاج آلامي ! »

ومع هذه الكلمات تهالكَ المسافرُ على الحشائش ، فسُمِعَتْ قعْقعةٌ للأسلحة التي كانت تغطي جسده ، فلم يشُكّ دون كيشوت في كونِ الرجل فارساً متجولاً ، فاقتربَ من سانشو وأمسكه بذراعه وراحَ يهزه . وبعد أن أيقظَه بعناء ، قال له بصوت خافت :

— « أيها الصديق ! يُخيّلُ إليَّ أننا على عتبةِ مغامرةٍ رائعة ! »

فأجاب التابع وهو نصفُ نائم :

— « أرجو من الله أن تكون كذلك ! .. أين هي ؟ »

— « أنظر في هذه الناحية ! ألا ترى فارساً متجولاً يستلقي فوق العُشْب ؟ .. ولكنِ اصمتْ .. ها هو يتَمخّطُ استعداداً للغناء ! »

وبالفعل لم يلبثْ صوتُ الرجلِ المجهول أن انطلقَ بالغناء.. فراحَ دون كيشوت وتابعُه ينصتان بانتْباه .

وبعد أن فرَغَ الرجل من أغنيته ، أرسلَ زفْرَةً طويلةً ، وجعل يُناجي شخصاً غائباً ، بصوتٍ مكتئب :

— « يا أحبَّ النساء ، وأعقّهن على الاطلاق ! إلى متى ، أيتها القاسيةُ ، كاسيديه دي فاندا لي ، تتركين في العذاب هذا الفارس الذي أصبح أسيرَ حبّك ؟ ! إن المجدَ الذي اكتسبتُه بأعمالي الجليلة ... »

عندها قال سانشو لدون كيشوت :

— « إن هذه البداية تدُلّ على أن الحديث سيطول ! »

فسمع الرجل المجهولُ صوتَ التابع ، فصاح :

— « من هناك ؟ .. أأنت من الأشقياء أم من المحظوظين ؟ »

فأجابه دون كيشوت :

— « بل من الأشقياء ! »

— « اقتربْ مني إذن ، فإن قلبي مع جميع البائسين ! »

فسار إليه دون كيشوت ، وتابعُه في أثره . قال الغريب :

— « إجلسْ بقربي ، فما أظنّك إلا فارساً مُتجوِّلاً ؟ لأنني أراكَ في هذا المكان المُوحِشِ ، وفي هذه الساعة ، مُستلقياً على الأعشاب ، التي هي السريرُ الطبيعي لأمثالنا من الأبطال ! »

— « أجل ، أيها السيد ؛ فأنا فارسٌ متجوِّل ! »

هنالك أخذ تابعُ الفارس المجهول سانشو بذراعِه ، وابتعدا عن سيّدَيْهما .

قال الغريبُ لدون كيشوت :

— « عليّ أن أخبِرَك أن الحسناءَ الفريدة « كاسيديه دي فاندالي » ، التي جعلَني الحظّ السعيدُ عَبْداً لها ، لم تُجازني على حبي العميق إلا بدَفْعي باستمرارٍ إلى أعمال أشقّ وأعظم من أعمال « هِرَقْل » العظيم . وقد نهضتُ بتلك الأعمال جميعاً . ولكن كاسيديه القاسية طلبتْ مني أن أجوبَ أنحاءَ إسبانيا وأجبرَ ، بقوة السلاح ، جميعَ الفرسان بهذه البلاد ، على الاعترافِ بأن حبيبتي أجمل من أميرات العالم كافة . وأنا الآن في صَدَدِ تنفيذ هذه المهمّة الصعبة . وقد تغلبتُ حتى الآن على مجموعة من الفرسانِ المتجولين ، وفي طليعتِهم أعظمُ وأخطرُ محاربينا ، وهو دون كيشوت دي لامانش الشهير ، الذي أفْخَرُ بأنني انتصرتُ عليه وحمَلْتُهُ على الاعترافِ بأنّ محبوبتَهُ دولسينه لا تُذْكَر بجانب كاسيديه دي فاندالي ! »

ولما سمع بطلُنا هذا الكلام لم يتمكنْ من التغلّب على غَضَبه إلا بمشقّة . قال له ، بصوتٍ حاول أن يكون هادئاً بقدر الإمكان :

— « أيها السيد ! أنا لا أعارِضُكَ في القول بأنك تغلبتَ على كثير من الفرسان الإسبانيين ، ولكن لديّ من الأسباب ما يجعلُني أؤكّدُ أن الذي توهمتَ أنه دون كيشوت ، ليس هو ذلك المحاربَ الذائعَ الصيتِ .. فلا شك في أن عينيك قد أخطأتا ! » .

— « كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ .. إن الذي تغلبتُ عليه هو دون كيشوت بالذات وفي استطاعتي أن أصفَهُ لكَ بالضبط . فهو رجلٌ نحيلٌ ، جافّ العود ، له وَجْهٌ مستطيل خال من اللحم ، وأنفٌ أقْنى ، وشاربان أسودان مُتهدّلان . وقد اتخذَ لنفسهِ كُنيةً هي « ذو الوجه الكئيب » . أما تابعهُ فهو فلاحٌ يُدعى سانشو بانسا . والجوادُ القويّ الذي يحملُه في المعارك يسمّى روسينانت . ومحبوبته هي دولسينه دو توبوزو . وأعتقدُ أن هذه التفاصيل كافية لإقناعك ، وإذا لم تقتنعْ بها فإنّ معي سيفاً يُثْبتُ كلّ ما أقوله » .

— « إذنْ فأنا أعلنُ لك أن دون كيشوت هو أمامَك ، وهو مستعدّ لتبديد أوهامِك سواء على الأرض أم على ظهر الجواد ! »

قال البطل هذا ونهض واقفاً وقد وضع يدَهُ على مِقْبَضِ سيفِهِ . فنظرَ إليه الغريب دون أن يتحرك ثم قال له :

— « إن معاركَ الليل لا تَروقُ إلا لقُطّاعِ الطرق ، فلننتظر ضياء الفجر لينيرَ معركتنا . وأنا أضعُ شَرْطاً صريحاً لهذه المبارزة ، هو أن يظلَّ المغلوبُ خاضعاً ، بعد ذلك ، لمشيئة الغالب ، على ألا يَطْلُبَ إليه هذا ما يتعارض مع قوانين الفروسية ! »

— « لو لم تضع هذا الشرط ، لوضعتُه أنا ! »

وأقبلَ الصباح وأشرقتِ الشمسُ ، فبدت الطبيعة وكأنها تبتسم . وما إن أفاقَ سانشو ونظرَ إلى تابعِ الفارس الغريب ، حتى استَبَدَّ به الرُّعْبُ ، إذْ رأى له أنفاً هائلاً يُسيطرُ على كل وجهه ، وينحدرُ مقدارَ إصبعين عن فمه ، وهو فوق كل هذا مُكَسُوٌّ بثآليلَ كبيرةٍ حمراءَ ، مما يجعل لوجه الرجل منظراً رهيباً ، فتراجع سانشو كأنه أمام شبح من الأشباح .

في هذا الوقت كان دون كيشوت يتأمل خصمه الذي كان قناعُه المحكم يستر وجهَهُ تماماً . لم تكن قامتُهُ مرتفعةً ، ولكنه كان متينَ البنيةِ . وكان يرتدي فوق سلاحهِ سترةً من القَصَبِ عليها أقمارٌ تلتمعُ كالمرايا . وكانت تعلو خوذتَه قُنْزُعَةٌ رائعةٌ من الريشِ الأبيض

والأخضر والأصفر ، وتنتهي قناتُهُ الضخمةُ برأسٍ من الفولاذِ المَسْنون .

وقدّرَ بطلنا أن خصمَه لا يُسْتَهانُ به ، ففرحَ بينه وبين نفسه ، وطلبَ منه بكل أدب أن يرفعَ عن وجههِ القِناعَ ، فأجابه الفارسُ المجهول بكبرياء :

— « أنا لا أكشفُ وجهي إلا بعد المعركة ! »

هنالك امتطى كلٌّ منهما حصانَه ، وابتعدا عن بعضهما لتوسيع الميدان . وما إنْ ابتعدَ دون كيشوت مسافةً قصيرةً حتى صاح المجهول :

— « تذكَّرْ ، أيها السيد ، أن على المغلوب أن يبقى رَهْناً لمشيئة الغالب ! »

فأجاب دون كيشوت :

— « على ألا يخالفَ الغالبُ قوانينَ الفروسية ! »

وغرزَ بطلُنا مِهْمازَيْهِ في جانبيْ فرسهِ الأعجفِ ، فانطلقَ يعدو به حُضْراً (العدو السريع) للمرة الأولى . أما خصمُه فلما أراد أن يفعلَ مثْلَهُ لم يطاوعْه حصانُه ، وبالرغم من الهمزِ والحثِّ والتخبّط . ظلَّ الفرسُ مكانَهُ لا يتحرك ، وكان بطل « المانش » قد وصل إليه مُنْصبّاً كالصاعقة ، واقتلعه من السرج ، فوقع على الأرض غائباً عن الوعي .

وفي الحال ترجّلَ دون كيشوت ، وجرى إليه

وسيفه في يده ، ثم نزع له قناعه ليرى إن كان قد مات . ولكم كان دهشه عظيماً عندما رأى أمامه وجه الطالب الشاب شمشون كاراسكو . وعندها صاح :

— « سانشو ! تعالَ بسرعة ، وأعجبْ للحيلة الجديدة الغريبة لأولئك السحرة الأنذال ! »

وعندما عرف سانشو ، في الفارس الممدد ، دون حراك ، الطالبَ الشاب ، راح يرسم إشارة الصليب ويكررها ، ثم قال :

— « لا عليك ، يا سيدي ! أخْرُقْ جسدَه بسيفِك ، على كل حال ، فينقص واحد من السَّحَرَة ! »

فرفع دون كيشوت يدَه بالسيف ، وهمَّ بضربِ الساحرِ . ولكن التابعَ الغريب جرى نحوه ، بعد أن نزع أنفَه الاصطناعي ، وركع أمامه هاتفاً :

— « إياك أن تَقتُلَ صديقَك ، يا سيدي ! »

فسأله سانشو :

— « وأين أنفك ؟ »

فأجاب وهو يخرجه من جيبه :

— « ها هو ! »

— « ألستَ أنتَ توماس سيسيال ، جاريَ وصاحبي ؟ »

— « أنا هو بعينه ، وسأخبرك لماذا تنكّرْنا ، أنا

وكاراسكو المسكين ، على هذا النحو .. سألتُكَ بالله ألا تَدَعَ سيدَكَ يقتلُهُ ! »

وهنا استعادَ الشاب وَعْيَهُ ، فوضع دون كيشوت رأس السيف على نحرِه وقال له :

— « أيها الفارس ! إنك ستموت إذا لم تعترفْ بأنَّ دولسينه تَفوقُ فتاتَك حُسْناً وبهاءً ، وإذا لم تَعِدْني بأن تذهب إلى مدينةِ توبوزو وتضع نفسَك تحت تصرّف الأميرة العظيمة . »

— « إنني أعترفُ ، وأعدُ بكل ما تريد ! »

— « ليس هذا كلّ شيء ، بل عليك أيضاً أن تُقِرَّ بأن الفارسَ الذي سبق أن هزمتَه ليس هو دون كيشوت ، بل شخصٌ مشابهٌ له ، كما أنني أعترف وأومنُ بأنك لست أنت الطالب كاراسكو ، بل شخصٌ يشبهُهُ ! »

— « إنك لعلى حق ! وأنا أعترفُ بأن كل ما تقولُه هو عينُ الحقيقة ! ولكن بربّك أعْطى يَدَكَ ، وساعدْني على النهوض ! »

ولما اطمأنّ دون كيشوت أعانَ عدوّهُ ، وأركبه ، بمساعدةِ التابعَيْن ، على حصانِه ، ثم تركَهُ مع توماس ، ومضى في سبيله ، وسانشو وراءَه .

في الوقتِ الذي كان فيه دون كيشوت يسير مُسْرِعاً

وهو يَشعُرُ بالزّهْو لهذا النّصرْ المبين ، كان الطالبُ الشاب يَعُودُ أدراجهُ مُطأطَأ الرأسِ ، حَزيناً للنتيجةِ السيئة التي آلتْ إليها خِطتّه .

فالواقع أنه قامَ بدَوْرِ الفارس المتجول نُزولاً على نصيحَةِ الكاهنِ والمعلّمِ نيقولا ، صديقَيْ دون كيشوت . إذ أنهما حين عَجزَا عن استْبقاءِ صديقِهِما في منزله ، فَكَرّا في إرسال الطالب الشاب في أثره ، متنكّراً في زيّ فارسٍ متجول .. وقالا له :

— « أطلبْه للمبارزة ، وستتغلب عليه بسهولة ، فإذا فعلتَ أجبرْهُ على القَسَمِ بأنْ يبقى في داره خلال عامين ، ولا يحملَ سلاحاً . وبما أن دون كيشوت دقيقٌ في تطبيق قوانين الفروسية ، فلن ينْكُثَ عَهْدَهُ ، وبذلك يكون أمامَنا فُسحةٌ من الزمن لمعالجةِ دماغِهِ المريض ! »

وقد تبرّع توماس سيسيال ، جارُ سانشو ، بأن يؤدي دورَ التابع ، ويركّبَ على وجههِ أنفاً مُستعاراً ، حتى لا يعرفَهُ تابعُ دون كيشوت . وقد تبعَ الاثنان آثارَ البطلِ حتى عثرا علَيْه في الغابة وكان ما كان من انتهاء المغامرةِ بصورةٍ مؤسفةٍ بالنسبة إلى الطالب الشاب .

وفيما كان توماس يقود الشاب المصاب إلى منزله ، قال له هذا :

— « بما أنني قد أصبحتُ ، يا عزيزي ، فارساً متجولاً ، فلا بُدّ لي من البقاءِ كذلكَ إلى أن أحْظى بالسيد دون كيشوت » .

* * *

٣ . تحدي الأسود

في اليوم التالي ، بينما كان دون كيشوت سائراً على الطريقِ العامة ، شاهدَ عَرَبَةً كبيرةً تخْفُقُ فوقَها راياتٌ عليها شاراتُ الملك . فلم يشكّ أن هناك مغامرةً تنتظرُهُ ، فأرخى قناعَه وضمّ إليه رمحَه وانتظر . وكان يقودُ العربةَ رجلان ، كان أحدُهما على البغال ، والثاني في المُؤخّرة . فتقدّم دون كيشوت نحوَهما وسألهما قائلاً :

— « أيها الأخوان ! إلى أين ؟ وما هذه العربة ؟ وعلى أيّ شيء تحتوي ؟ وما معْنى هذه الرايات ؟ »

فأجابَ السائقُ :

— « هذه العربةُ هي عربَتي ، يا سيدي ! وهي تحملُ قَفَصين كبيرين يضُمّان أسدَيْن إفريقيين مُرسلين من قبل حاكم « وَهْرانَ » هديّةً لصاحب الجلالة ، أما الراياتُ ، فإن الشاراتِ التي عليها تدُلكَ على أنها تخصّ الملك . »

— « وهل لَدى هذين الأسدين بعضُ القوة ؟ »

– « إنه لم يَرِدْ قط بمثل قوتهما إلى اسبانيا ! »

– « تَفَضَّلْ ، يا صديقي بالنزول ، ثم افْتَحِ القفصين ، واتركْ لي هذين الحيوانين المسكينين ! .. إني سأكونُ مسروراً جداً بأن أعلّم السَّحَرَةَ الذين وَجّهوهُما إليّ ، مَنْ هو دون كيشوت دي لامانش ! »

ولما رأى دون كيشوت السائق متردداً ، تابع كلامه قائلاً :

– « أيها النذل ! أقسِمُ بالله أنني سأسَمّرك في العربة ، بهذا الرمح ، إن لم تفتح القفصين في الحال ! »

فتضرع إليه السائق ، الذي استولى عليه الخوف ، أن يسمح له ، على الأقلّ بفكّ البغال وإبعادها عن الخطر ، لأنها تؤلّفُ كلّ ثروتِه ! »

قال دون كيشوت :

– « أيها الرجلُ القليلُ الإيمان ! إن رَحْمتي تستجيبُ لما طلَبْتَ ! .. فُكّ بغالكَ واهرُبْ ! .. بعد لحظة سترى بنفسِك أنه لم يكن هناك أي داعٍ لهذه الاحتياطات ! »

وصاح سانشو :

– « سيدي ! سيدي ! لقد رأيتُ ، من بين القضبان ، قائمةً واحدة من قوائم هذين السيدين .. وأقسِمُ لك أن الأسدَ الواحد ، حسب هذه القائمة ، لا بُدّ أن يكون كالجبل ! »



دون كيشوت يتأمل الاسد

فأجابه دون كيشوت بقوله

— « إن الأسود تبدو كبيرة للخائف ! .. إنسحبْ ، يا سانشو المسكين ! .. إذا مُتَّ في هذه المعركة ، فأنت تعرف ما يجب أن تقول لدولسينه ! »

وبينما كان سانشو يُفَتّشُ عن مكانٍ أمينٍ يَلجأُ إليه ، كان دون كيشوت يُلحّ على السائق أن يُسْرِعَ في فتح الباب . فقرّرَ هذا أخيراً أن يُنَفّذَ أمرَهُ ، وفتحَ الباب على اتساعه ، كاشفاً عن الأسدِ الضخم ، بلُبدته المائلة ، وعينيه الحمراوين المخيفتين . فراحَ دون كيشوت يتأمّلُه بلا خوْف . أما الأسدُ فقد استدارَ ، ومدّ قوائمَه ببُطءٍ ، وشدّ عضلاته ومخالبه ، وفتح شدْقهُ العميق ، وتثاءبَ تثاؤباً طويلاً . وبعد ذلك أخرجَ لساناً غليظاً ، وراحَ يَمُرّ به على مِشْفَريه وخديه . ثم نهض وأخرج رأسَه خارجَ القفص ، وجال بحدقتيه ، اللتين تُشْبهان حَجَرتين ضَخْمتين ، يميناً وشمالاً .

وكان بطلُنا يتابعُ حركاته بكل انتباه ، وهو ينتظرُ ، بفراغِ صبرٍ ، بدايةَ المعركة . ولكنّ الأسدَ الكريمَ ولاّه مؤخرته واضطجع في آخر القفص .

عندها طلبَ دون كيشوت من السائقِ أن يَهيّجَهُ بالعصا ، ويُجْبِرَهُ على الخروج ، فقال له الرجل المسكين :

— « لا ! .. أرجوك ! إن أوّلَ شيءٍ سيفعله ، إن أنا هِجْتُهُ ، هو تقطيعي . ولكن .. في الحقيقة ، يا سيدي الفارس ، يجب أن تكون راضياً ، بل أكثر من راضٍ ، لأنك وَصَلْتَ من الجُرْأةِ والإقدامِ إلى الحدّ الأقصى . ويبدو لي أن المرءَ عندما يتحدّى عدوّهُ ويدعُوْهُ إلى الصدام ، والعدوّ لا يستجيبُ ، يكون قد كسبَ المعركة ، دون أيّ شك . وأنت ، أيها السيد ، كان النصرُ حليفَكَ ، فلقد هربَ منك الأسدُ ، إذن فقد تغلّبتَ عليه ! »

— « أنت على صواب ! .. أغْلِقْ هذا القفص ، يا صديقُ ! .. فلقد أدّيْتُ أنا واجبي ! .. ليَمُتِ السحرة ، ولْتَعِشِ الفروسية ! » لم يكن السائقُ يطلب أكثر من هذا .. فما أسرع ما صَدَعَ بأمر دون كيشوت ، وأقفل باب القفص ، ونادى سانشو من مخبأه .

قال دون كيشوت للسائق :

— « في إمكانك ، أيها الصديق ، أن تربِطَ بغالكَ بالعربة ! .. وأنت ، يا سانشو ، أعطِ هذين السيدين ريالين لقاءَ الوقتِ الذي أضعْناه عليهما . »

فأعطاهما سانشو ريالين ذهباً ، فقبّلا يدَ دون كيشوت ، ووعداه بأن يرويا للملك ما شَهِداهُ من بطولته . فقال لهما :

— « إذا سألكما جلالتُه مَنِ الذي أقْدَمَ على هذه

المغامرة ، فأرجو أن تقولا له إنه « فارسُ الأسودِ » ! . . فقد صمّمْتُ على التخلّي عن كنية « الوجه الكئيب » ، التي حمَلْتُها حتى هذه الساعة ! »

ولم يعترضِ الرجلان على هذا التغيير ، واستأذنا منه ، وتابعا طريقهما ، بينما سار ، هو وتابعُهُ في سبيلهما .

بعد قليلٍ شاهد بطَلانا ، وهما يجتازان أحدَ المروج جماعةً من الصيادين وحاملي الصقور . وكانت في وسطِهِم سيدةٌ شابة ، لها وجهٌ جميلٌ عليه سيماءُ النبْل ، وكانت تركبُ مَطيّةً بيضاءَ ، وتحملُ صقراً فوقَ يدِها . وكان التعظيمُ ، الذي يُبْديه نحوَها الصيادون ، يدلّ على أنها ذاتُ مكانة رفيعة ، وأنها هي الآمرةُ الناهيةُ بينهم .

فقال فارسُنا لتابعِهِ :

— « إذهبْ ، يا بُنيّ سانشو ، إلى هذه السيدة الجميلة ، التي تحملُ صقْراً فوق قبْضتِها ، وقلْ لها إنَ فارسَ الأسودِ ، الذي يضعُ احترامَه عند قدَميْها ، يطلبُ منها الإذنَ لتقديمِ نفسه إلى سموّها ، وعرضِ خدماته عليها ! »

فأركضَ سانشو حمارَهُ حتى وصل إلى وسط الصيادين ، فترجّلَ وتقدّمَ من الفارسةِ ، وركع أمامَها وقال :

— « أيتها السيدة ، ذات الجمال الفاتن ! إنني أُدعى سانشو بانسا ، وأنا تابعُ فارسِ الأسودِ الذي ترَيْنَهُ

واقفاً هناك . إنّ سيدي ، الذي كان يُدْعى ، في الماضي ، الفارس « ذا الوجه الكئيب » ، قد أرسلني إليكِ لأقولَ لكِ إنه يُسْعِدُهُ أن يُقبّل قدَميْ جمالكِ ، وأن يضعَ نفسه في خدمةِ سُمُوِّكِ وخدمة طائرِكِ هذا . ولكنه يحتاجُ إلى إذنكِ كيما يتقدّم!.. وأضيفُ أنا أن في استطاعةِ سيادتِكِ أن تمنحيه هذا الإذنَ ، وستكونين مسْرورة ! »

فأجابت السيدة بقولها :

— « أيها التابعُ اللطيف ! إنك لتؤدّي الرسالة ، التي تُكلّف بها ، أروعَ الأداء ! .. إنهضْ أولاً ، فإنه لا ينبغي للرفيقِ الأمينِ لفارسِ الوجهِ الكئيب ، الذي أعرفُ كل المعرفة بطولاتهِ وأمجاده ، أن يتحدّث وهو راكع . فأرجو أن تنهضَ إذَنْ وتعودَ إلى سيّدِكَ وتقولَ له إنني وزوجي الدوقَ سنُسَرّ غايةَ السّرور باستْقبالهِ في منزلِنا ، الذي لا يبْعُدُ كثيراً عن هذا المكان ! »

فانحنى التابعُ باحترام ثمّ مرّ بين مجموعةِ الصيادين بكبرياء ، وتوجّهَ إلى سيّدِه يقدّمُ إليه تقريراً عن الردّ المُفْرِحْ الذي صدَرَ عن الدوقة . ولما سمع دون كيشوت ما حمله تابعهُ ، اعتدلَ على ظهر حصانه ، وثبّتَ قدميه في ركابيه ، ورفعَ القناعَ عن وجْهِهِ ، وتقدّمَ رافعَ الرأس .

خلالَ هذا الوقتِ كانت الدوقةُ قد أرسلتْ تَدْعو زوجَها ، وأخبرَتْهُ بكلِّ ما حدث . ولما كان كلاهما قد سمع بقصص دون كيشوت المضحكة ، فقد قرّرا أن يستقبلا بطلَ « المانش » كفارسٍ متجولٍ حقيقي ، ليقْضِيا وقتاً ممتعاً . وعلى هذا الأساس توجّه إليه الدوقُ وعانقَهُ ، وهو يقولُ بكل جِدٍّ :

« إذا كان فارس الوجه الكئيب العظيم يريدُ أن يُشرّفنا بزيارتهِ فلنتوجّهْ إلى القصر ! »

فعادَ دون كيشوت إلى ظهرِ جوادِه ، وكذلك فعلَ الدوقُ ، ثم سارا والدوقةُ بينهما .

ولما اقتربوا من القصر تقدّم عنهما الدوقُ ليُصْدِرَ الأوامرَ الضروريةَ ، لاستقبالِ دون كيشوت استقبالاً لائقاً . وما إن وصلَ بطلُنا إلى المدخلِ حتى أقبلَ نحوَه تابعان ، يرتديان الملابسَ الثمينة ، وساعداه على الترجّل . ثم جاءَتْ أربعُ فتياتٍ جميلات ووضعن على كتفيه معْطفاً أرجوانياً . وامتلأتْ الردْهات بالمستقبلين . وكان سكانُ القصرِ يهتفون : « ما أسعدَ هذا اليوم الذي نستقبلُ فيه زهرةَ الفروسية ! » وقد امتلأ دون كيشوت بالسرور ، فكان يسيرُ بوقار وقد أعطى يدَه للدوقة ، وراح يشكرُ اللهَ بينَه وبين نفسه .

وأدْخِل البطل إلى قاعةٍ فخمةٍ مُزدانةٍ بالقماشِ

المُذهَّبِ ، ومن ثمَّ تحوّل ، بحفاوةٍ بالغة ، إلى قاعة الوليمة .

وبينما كانوا حولَ المائدة ، التفتَ أحدُ الضيوف إلى سانشو ، الذي كان يقفُ وراءَ سيدِه ، وسأله :

— « ألست أنت سانشو بانسا ، الذي وعده سيدُه بإدارة إحدى الجزر ؟ »

— « بلى ، يا سيدي ! وأنا أستحقّها مِثْلَ غيري على السواء .. إنني من أولئك الذين يُقال عنهم « إنهم إذا رافقوا الصالحين صَلَحُوا » ، وأنا ، بفضلِ الله ، مع سيدٍ فاضلٍ ، قضيتُ في صحبتهِ مدةً طويلة .. وأنا أستفيدُ من هذه الصّحْبَةِ باستمرار ، وأملي كبيرٌ أن اللهَ لن يَحْرمنا من الامبراطوريات ولا من الجُزُر ! »

فتدخل الدوق وقال له :

— « كلا ! لن تُحْرَمَ من ذلك إطلاقاً .. فأنا أمْلكُ تسعَ جُزُرٍ ، وإكراماً للسيد دون كيشوت سأهَبُكَ ، منذ اليوم ، أجملها جميعاً ! »

فصاح فارسنا :

— « سانشو ! هيا اركع أمامَ سعادته ، واشكره على صنيعه ! »

فأطاع التابع في الحال . وبعد ذلك أخذه المشرف على القصر ليتناولا الطعام معاً .

٤ . سانشو حاكماً

لما بقي دون كيشوت وحدَه مع مُضيفيه اللطفاء ، راح يتحدث عن دولسينه كما يُصوّر له عتَهُه ، وعن كثيرٍ من الأشياء الأخرى بفطنة وتعقّل . وبعد أن استمعَ الدوقُ إليه سأله بكل جدّ إن كان تابعُه قادراً على إدارة الجزيرة التي نوى أن يهبه إياها . فأجابه دون كيشوت بقوله :

— « أيها السيد ! ينبغي لي أن أتكلمَ بكلّ صراحة .. إن طبعَ سانشو خليطٌ عجيبٌ من الأشياء المتناقضة ، فهو في نفس الوقت أبلَهُ وذكيّ ، ساذجٌ ومحتالٌ . وهو بينما يقول لك شيئاً يبدو تافهاً ، ترى أنه أعطاك به درساً بليغاً . أما قلبُهُ فطاهرٌ ، وأما أمانتُهُ فتامّة .. إنه يُحبّ الفضيلةَ بطبيعته ، وبساطتُه تُخفي وراءَها عقلاً راجحاً .. وهذا كافٍ ، في رأيي ، ليجعل منه حاكماً صالحاً ! »

في هذه اللحظة نهض المدعوّون عن المائدة ، وجاء سانشو وركعَ أمامَ الدوقةِ ، وقال لها :

— « سيدتي ! بعد العطفِ الذي أحطتني به ، قرّرتُ نهائياً أن أصبح فارساً متجولاً ، وأجعل منك السيدةَ التي أخضعُ لها . ولكنْ في انتظارِ ذلك ، لستُ سوى تابعٍ بسيطٍ ، كان يفلَحُ الأرضَ فيما مضى ،

وله زوجةٌ وأولاد .. إننا جميعاً تحت أمرك ! » فأجابته الدوقة بقولها :

— « إنه من الواضح أنك نشأتَ نشأةً مهذّبةً .. وأنا أشكرُك على هذا العرض ، وسأبرهنُ لك عن امتناني باستعجال السيد الدوق أن يسلّمك الإدارة التي وعدك بها .. وعما قريب ستحتلّ مركزَك كحاكم . ولكنْ ، أوْصيك بأن تعامِلَ مرؤوسيك معاملَةً طيبة ، لأنهم رجالٌ كرام ! »

— « ليكونوا جميعاً مُطمئنين من هذه الناحيه ، يا سيدتي الدوقة ! .. كوني على ثقة أنني سأكون صديقاً للناس الطيبين ، أما الأشرارُ فلن يجدوا عندي أذُناً صاغية ! .. هذا كل سرّي ! »

بعد ذلك ذهبَ دون كيشوت وسانشو إلى النوم . قال البطل لتابعهِ عندما أصبحا منفردَيْن !:

— « أترى ؟ ! .. لقد وعَدْتُكَ بجزيرةٍ ، وها هي قد أصبحتْ جاهزة ! .. وستجدُها جيدةً جميلةً ذاتَ ميّزات عظيمة . فكنْ على استعداد لأن تتوجه ، غداة غدٍ ، إلى دولتك .. هذا المساء ستُحْمَل إليك الملابس والأشياءُ الأخرى الضرورية لمنصبك الجديد .. عليك ، يا سانشو ، أن تكون عسكرياً ومتعلماً ، لأن ثوبَك يستدعي كلتا الصفتين . »

— « أذْكُرُ أنني أخبرتك ، قبل الآن ، بأني لست متعلماً كبيراً ؛ فأنا لم أعرف قط أن أقرأ ، ولكنّ كثيراً من الحكام لا يقرأون أيضاً ! أما بخصوص مزاياي العسكرية ، فأنا أقاتل عندما أكون أنا الأقوى . هذا كل ما أستطيع أن أقدّمَهُ لك ! »

في نفس الليلة تلقّى مديرُ أملاك الدوق الأمرَ بأن يرافقَ الحاكمَ الجديد إلى الضيعة التي دعَوْها جزيرتَهُ . فتوجه ، في موكب ، إلى التابع الذي كانوا قد ألبسوه ثوباً فضفاضاً ، وفوقه معطفٌ أسمرُ ذهبيّ وقبعةٌ من نفسِ النوع .

وسار سانشو في هذا الزيّ وهذا الموكب لوداع الدوق والدوقة . وبعد ذلك تحوّل إلى سيده يُقبّل ركبتيه ، وهو يتنهّدُ حسرةً على فراقه . فباركه دون كيشوت والدموعُ في عينيه . كذلك لم يستطع سانشو أن يمنع الدموع التي سالَتْ على خدّيه . وفي النهاية أركبوه على بَغْلةٍ وسار ، وفي أثره حمارُه المحبوب .

كانت الدولةُ المنيعةُ الجانبِ ، التي سيحكمها سانشو ، عبارةً عن قرية يملكُها الدوق ، مكونة من نحو ألف بيت . وقد أطْلَقوا على هذه القريةِ اسمَ « جزيرة باراتاريا » .

ولما وصل سانشو إلى أبوابِ عاصمتهِ ، وجَدَ

وُجَهاءَ الشعب في استقبالهِ . وقُرِعَتِ الأجراسُ ، وأبْدَى السكانُ فرحَهُمْ بالحاكم الجديد ، الذي قُدّمت إليه مفاتيحُ المدينةِ ، ونادى به المنادون حاكماً على باراتاريا مدى الحياة .

وقد تلقّى سانشو الطيبُ كل هذا التعظيم بوقار ، دون أن يَظْهَرَ عليه أيّ من أمارات الدّهَشِ . ولكنّ بعضَ السكانِ ، الذين لم يعلَموا بسرّ ما يحدث أمامَهم ، أبْدوا العجبَ من شكلِ هذا الذي اختيرَ سيداً لهم ، ومن لحيتهِ الكثيفةِ وقامتهِ القصيرة المستديرة .

وتوجّه الموكبُ بسانشو إلى قاعةِ المحكمة ، حيثُ أجلِسَ على مقْعَدٍ من المخمل ، وفوقه مظَلّةٌ فخمة . ومن ثمّ تقدّم منه وكيلُ الدوق ، الذي كان يُشْرِفُ على الاحتفال ، وقال له :

— « أيها السيد ! إن هناك تقليداً ، قديماً ومحترَماً ، يقضي على كلّ حاكمٍ جديد لهذه الجزيرةِ ، أن يبدأ عهدَهُ بالفصلِ في قضيتين أو ثلاثِ من القضايا المعقّدة الصعبة ، كيما يَشْعُرَ شعبُهُ مقدّماً بالسعادة التي تنتظره .. ولا أظن أن سيادتك سترفض السرَ حَسبَ هذا التقليد ! »

وبينما كان يتحدث ، دخل القاعة رجلان أحدُهما يرتدي ملابس الفلاحين والثاني يحمل مقصاً كبيراً . وتكلم هذا الأخير فقال :

« أيها السيد الحاكم ! إنني أحترِفُ حرفة الخياطة .. وقد جاء هذا الفلاحُ أمسِ إلى دكاني ، وقال لي ، وهو يُريني قطعة من الجوخ : « هل تستطيعُ أن تصنعَ معطفاً بهذه القطعة ؟ » فأجبته على الفور : « نعم ! إنها تكفي لمعطف ! » فدُهِشَ لأنني أجبته دون تردّد ، وظن أنني أنوي أن أسرقَ من القطعة ، فقال : « أنظرْ جيداً ! .. ألا تكفي لمعطفين ؟ » فعرفتُ ما يجولُ في رأسه ، وقلتُ « بلَى ! » فصار يُريدُ ثلاثةَ معاطفَ ، ثم أربعةً ، ثم خمسة . واتفقنا أخيراً على أن أسلّمه خمسةَ معاطفَ . وقد صنعتُ له المعاطفَ الخمسة ، فرفضَ أن يتسلمها ، ولم يكتف بالامتناع عن دفع أجري ، بل طلبَ مني كذلك أن أعيدَ إليه قطعةَ الجوخ . وهأنذا أرفع أمري إلى عدالتك ! »

فالتفت سانشو إلى الفلاح وسأله :

— « هل الواقعةُ مطابقة ، يا أخي لما روَى الخياط ؟ »

أجاب الفلاح :

— « نعم ، سيدي . أنا أعترفُ بذلك ! ولكن هل لك أن تَطْلُبَ رؤية المعاطف الخمسة ؟ »

فصاح الخياط :

— « بكل سرور ! »

وأخرج من تحت معطفه خمسةَ معاطفَ صغيرة جميلة وعلّقها على أصابعه الخمسة ، وأضاف : « ها هي ! ..

ولْتُعْرَضْ على أمهرِ خياط إن كان يجدُ فيها أي عيْب ! وأقسمُ أنه لم يبقَ لديّ من الجوخ حتى ولا قصاصة صغيرة ! »

وراحَ الجميعُ يضحكون فيما عدا سانشو ، الذي ظلّ مُحْتفظاً برزانته .. قال :

— « إن الرأيَ يجب أن يَحِلّ محلّ القانون في هذه القضية : يجب أن يخسرَ الخياطُ أجرَ يدِه ، ويخسر الفلاحُ قماشَهُ ! .. إلى القضية التالية ، فليس لديّ وقتٌ أضيعه ! »

هنالك تقدّم أمامه رجلان مُسِنّان .. قال أحدهما :

— « لقد أقرضتُ ، يا سيدي ، هذا الرجلَ عشرةَ ريالات ذهباً . وقد مَضَتْ مدةٌ طويلة على هذا الدين ، دون أن يأتي على ذِكْره . وخُيّل إليّ أنه نَسِيَهُ ، فذكّرته به . وكم كان دهشي عظيماً عندما فاجأني بأنه سبق له أن دفعَ إليّ المبلغ . وبما أنني لا أحمِلُ سَنَداً ، وليس لديّ شُهود ، فأرجو من سيادتك أن تطلبَ إليه اليمينَ ، لأنني أعرف أنه لا يمكن أن يُقسم كذباً ! »

فقال سانشو للرجلِ الآخر ، الذي كان يَسْتمعُ ، وهو مُتّكئٌ على عصاً غليظة :

« ماذا تقول ؟ »

— « إنني مستعدٌ لأن أقسمَ بعصا العدالةِ التي تحملُها على أنني أعدتُ إلى هذا الرجل دَيْنَه ! »

فخفض سانشو عصاه ليحلفَ عليها الشيخُ المدينُ .
فسلّم هذا عصاه للدائن ، وأقسمَ اليمينَ على عصا العدالة بأنه أعادَ المبلغَ إلى صاحبهِ . ثم استعادَ عصاه ونظرَ بثقةٍ إلى مَنْ حولَهُ . أما الشيخ الأول فقد نظرَ بدهشٍ إلى غريمه ، ثم رفعَ عينيْهِ إلى السماءِ دون أن يتكلّم ، واستدارَ ليخرُج . فناداه سانشو وقال :

— « لم ينتهِ كلّ شيءٍ بعدُ ! .. أيّها الشيخُ الذي يحلِفُ بسهولةٍ بدونِ عصاه ، أعطِني هذه العصا ! »

ولمّا أخذَها توجّهَ إلى الدائنِ واستطردَ يقول :
« خذْها ، يا شيخُ ! في وسعِك الآنَ أن تخرج ، فقد وصلَ إليك حقّك ! »

قال الدائن :

— « ولكنّها لا تساوي عشرةَ ريالاتٍ ذهبيةٍ ، يا سيّدي !

— « بل هي تساوي هذا المبلغ ! .. ولكي تتأكّد من ذلك ، أكسرْها ! »

فلما كسرَها سقطت الريالاتُ الذهبيّة من جوفِها ، فضجّ الحضورُ بالتّصفيق ، ولم يشكّ أهلُ الجزيرةِ في أن حاكمهم « سليمانُ حكيم » جديدٌ .

بعد ذلك أخذوا سانشو ، في موكب فخم ، إلى القصرِ المعدّ لإقامتِه . وهناك أدخلَ إلى قاعةٍ واسعة

وُضعتْ فيها مائدةٌ عليها ما لذّ وطابَ من المآكل . فجلس سانشو حيث كانت عُدّةُ الطعام موضوعةً لشخصٍ واحد . ووقف إلى جانبهِ شخصٌ مَهيبٌ يرتدي ملابسَ سوداءَ ويحملُ عصاً في يدِه ، بينما راحَ كاهنٌ شاب يبارك الطعام . وكان رئيسُ الطّهاةِ يقدّمُ الأطباقَ الشهيّة . فنظرَ الحاكمُ الجديدُ بقلقٍ إلى الرجلِ الكبيرِ الوقور . ولكنّه سُرعانَ ما تحوّلَ إلى الأكلِ ، لأنه كان يكادُ يموتُ جوعاً . غير أنه ما إن رفعَ اللقْمةَ الأولى إلى فمه ، حتى خفض الرجلُ الواقفُ عصاه ، فرُفِع الطبقُ من أمامه . وعاد رئيسُ الطّهاةِ يقدّم إليه طبقاً آخرَ وصلتْ إليه عصا الرجلِ الأسودِ قبل يدِ الحاكم ، فرُفِع بدورِه . فدُهِشَ سانشو وتضايقَ من تناقُصِ ألوانِ الطعام على المائدة ، وسألَ حاملَ العصا إن كانت تقاليدُ البلادِ تجعلُ من تناولِ الطعامِ لعبةَ مُراوَغةٍ ؟ فأجاب الرجل :

— « كلاّ ، يا سيّدي ! .. إن من دواعي تشرّفي أن أكونَ طبيباً لحكّامِ هذهِ الجزيرةِ .. ومركزي هذا يقضي عليّ بأن أدرُسَ مزاجَ وحالةَ السيّد ، لأجنّبهُ كلّ ما يمكنُ أن يُضرّ بصحتّه الغالية . من أجلِ هذا أكونُ حاضراً خِلالَ جميعِ الوَجَبات حتى لا أدَعَه يأكلُ إلا ما يُناسِبُه . فالطبقُ الأولُ الذي قُدّم إلى

سَيادَتِك كان بارداً بحيث يَعْسُرُ هضمُهُ على معدَتِك ، أما الثاني فكان ساخناً ، مما يثير العطَشَ زيادةً عن الحدِّ الطبيعي ، ويعرّضُ الأمعاءَ للالتهاب ، ويؤدّي إلى امتصاصِ الماءِ الذي لا غنى للحياة عنه !

— « هذا شيءٌ رائع ! .. ولكن بما أن الأمرَ كذلك ، يا سيّدي الطبيب ، فرجائي أن تنظُرَ إلى كافّةِ المآكل الموجودَة هنا ، وتشيرَ ، مرةً واحدة ، إلى ما هو نافعٌ ، وما هو ضارٌ ، ثم تتركني آكلُ على مزاجي . لأنني أريدُ أن أتغذّى ، فأنا لا أستطيعُ أن أحكُمَ حباً بالموتِ من الجوع ! »

— « إن سيادَتَك لعلى صوابٍ ، وسأحدّدُ لك المآكلَ التي يمكن أن تتناولَ منها . هذه الأرانبُ لا قيمةَ لها ، لأنها ثقيلةٌ على الهضم ، ولحمُ العِجْلِ هذا ليس بأفضلِ منها ، لأنه ليس لحماً ناضجاً ، وهذه اليَخْنَةُ كريهةٌ بسببِ التوابلِ التي فيها ، وهذا الفرّوجُ المُحمّرُ ، كان من الممكنِ أن ينفعَكَ لو لم يدخُلْه شحمُ خنزيرٍ ، ولكنْ بما أنّه كذلك ، فأنتَ لا تستطيعُ أن تأكلَ منه ! »

ولمّا سمعَ سانشو هذا الكلامَ مال بظهرِه إلى مسنَدِ الكرسيِّ ، وراحَ يصعّدُ نظرَه في الطّبيبِ من قدَمِه إلى رأسه ، ثم قال :

— « هل لك أن تقولَ لي ما اسمُك ، من فضلك ،

يا سيّدي الطبيب ؟ !

— « اسمي الدكتور بيدرو ريسيو دي أغيرو ، وقد وُلِدْتُ في قريةِ تيرتيا دي فويرا ! »

— سيّدي الدكتور بيدرو ريسيو دي أغيرو ، المولودَ في قرية تيرتيا دي فويرا ، أخرُجْ من حضرتي في الحال ، وإلا فإني — قسَماً بالله — سآمرُ بشنْقِك ، أنت وجميعَ الأطبّاءِ الذين أجدُهُم في جزيرتي ! .. هاتوا لي طعاماً ، فلقد كسِبتُ طعامي عن استحقاقٍ ، في هذا الصباح ! »

فهَرَبَ الطبيبُ من أمامه وهو يرتجفُ . وما إن استعاد سانشو هدوءَهُ وأقبلَ على الطعامِ يريدُ أن يُصيبَ منه ، حتى سُمِعَ صوتُ حامل البريد . ودخل هذا ، والغبارُ يكسوه ، وقدّمَ إلى سانشو خطاباً فطلب ، أن يُقْرأ عليه عنوانهُ ، فإذا هو يحملُ هذه الكلمات : إلى دون سانشو بانسا ، حاكم جزيرةِ باراتاريا — يُسلّم إليه يداً بيدٍ أو يسلّمُ إلى أمينِ سِرّه .

فسأل سانشو :

— « ومن هو أمينُ سِرّي ؟ »

فأجابه شابٌ يتكلّمُ بلهجةِ أهلِ بسكاي (مقاطعة في إسبانيا) :

— « أنا ، يا سيّدي ! »

— « إقرأ هذه الرسالةَ ، وقلْ لي فحواها ! »



دون كيشوت العظيم ٧

وكان نَصّ الخطاب هو التالي :

« علمتُ في هذه اللحظة أنّ أعدائي وأعداءَك ، سيأتون لمهاجمتك ليلاً ، فكُنْ على استعداد للقائهم . وقد علمتُ أيضاً ، عن طريقِ جواسيسَ مخلصين ، أن أربعةً من القَتَلَة قد دخلوا المدينةَ متنكّرين : إنهم يُريدون قَتْلكَ . راقِبْ بانتباه جميعَ من يتّصلون بك ، وعلى الأخصّ لا تأكلْ شيئاً مما يُقدّمُ إليك . إنني أستعدّ لِنَجْدَتِك ، ولكنْ لي كلّ الثقةِ بشجاعتك ويَقْظَتِك ! »

صديقك الدوق .

فصاح سانشو :

— « سيّدي الوكيل ! إن أوّلَ ما ينبغي أن نفعلَهُ هو أن نُلقيَ بالدكتور بيدرو ريسيو في السّجن ، لأنه إذا كانَ هناك من يريدُ القضاءَ على حياتي فهو الدكتور بيدرو نفسه ، الذي حاولَ أن يجعلني أموتُ جوعاً ! »

قال وكيلُ أملاكِ الدوق :

— « سيّدي ! إن التحذيرَ الذي جاءَنا يَستَحِقّ العنايةَ التامّة . فأنا أتجرّأ وأرجو من سيادَتِكَ ألا تمدّ يدَكَ إلى أيّ من الأصناف الموجودَةِ على المائدة ، إلى أن أتأكّدَ من الأشخاص الذين أعدّوها ! »

— « الحمدُ لله ! .. ولكن أطلبْ لي خبزاً أسمرَ وشيئاً من العنبِ .. وإذا كانا مسمومَيْن فإن الشيطانَ نفسَه هو الذي يكونُ قد دسّ السمَّ ! .. لا بدَّ لي أن آكلَ : بشكلٍ أو بآخرَ ، فالحكّامُ لا يعيشون من الهواء ! .. ولا تدعْ أحداً يدخلُ عليّ قبل أن آكلَ خبْزي وعنبي ! »

ولكي يُعيدَ إليه الوكيلُ شيئاً من الراحة ، جاءَ إليه يقولُ إنه اهتمّ بنفسِه بإعدادِ غداءٍ لسيادتِه يمكن أن يتناولَه دون خوف . فضمّهُ سانشو إليه ، وأعلنَ أنه سيكونُ دوْماً أقربَ أصدقائه إلى نفسه ، وعيّنَهُ رئيساً لوُزرائه

٥ .. نهاية حكم سانشو

مضتْ سبعةُ أيامٍ منذُ أن تسلّمَ الحاكمُ العظيمُ زمامَ الأمبراطورية . وكان التعبُ قد نالَ منه ، حتى لم يَعُدْ يَقْوَى على الاحتمالِ ، إذ كان غذاؤه ، لا من المآكلِ الشهيّة ، بل من القضايا والتنظيم والقوانين الجديدة . فكان ينتظرُ الليلَ بفارغِ صبرٍ ليُخلدَ إلى السكينة ويستريحَ من العناء . وبينما كانَ على وشْكِ الإغفاء سمعَ ضجيجاً هائلاً وأصواتاً مختلفةً وقرْعَ أجراسٍ ، في جميعِ أنحاء المدينة . فجلسَ في سريرِه ، وراحَ

يُنصتُ باهتمامٍ . وما لبثَتْ الضجّةُ أن تضاعفت ، فاختلطتْ أصواتُ الطبولِ والأبواقِ بصرخاتِ الرّعبِ وقرْعِ نواقيسِ الخطر . فأخذ الخوف منه كلَّ مأخذ ، وهبّ من سريرِه ، ولبسَ خفّهُ ، وجرى إلى البابِ ، في ثيابِ النّوم . وفي تلكَ اللحظة رأى نحوَ عشرين شخصاً يَجْرُون نحوَه ، وفي أيديهم السّيوفُ والمشاعل وهم يصيحون بكلّ قِواهم :

« إلى السّلاح ! إلى السلاح ! أيها السيّدُ الحاكم ! إن الأعداءَ قد أصبحوا في الجزيرة ! .. لقد هلَكْنا ! »

فراح سانشو ينظُرُ إلى هؤلاءِ القادِمين وهو لا يدري ماذا عليه أن يفعلَ . فقال له أحدُهم :

« إحملْ سلاحَك ، يا سيّدنا ، إحملْ سلاحَك ، وإلا قُضيَ عليكَ وعلى حكومتك ! »

فأجاب قائلاً :

— « مهما تسلّحْتُ فلا فائدةَ مني . فأنا لا أفهمُ شيئاً في مسألةِ السّلاح .. هذه القضيّةُ من اختصاصِ سيّدي ، فهو الذي يستطيعُ أن يُخليَ الساحةَ في طرْفةِ عينٍ ، أما أنا فليستِ المعاركُ من اختصاصي ! »

— « ماذا تقولُ ، يا سيّدنا ؟ ! أنت قائدُنا وزعيمُنا ! ها قد أتيناكَ بالسّلاح ، فأسرعْ إلى استخدامه ، وليَقُمْ

كلٌّ منا بواجبه : أنت تسيرُ على رأسِنا ونحن نموتُ دفاعاً عنك ! »

— « ليكنْ ، أيها السادَةُ ! .. سلّحوني ، ما دمتم تُريدون ذلك ! »

وفي الحالِ ربطوا حولَ جسَدِه ترْسَيْن ، واحداً من خلفٍ ، وآخرَ من أمامٍ ، وأخرجوا ذراعيْه من بين الترْسَيْن . وهكذا وَجدَ نفسَه مشدوداً ، كأنه بين فكّيْ كمّاشةٍ ، لا يستطيعُ أن يتحركَ ، ولا أن يطويَ جسَدَه . فظلَّ واقفاً دونَ حَراك ، منتصباً كالمِغزَل . ثم أتَوْه برُمحٍ ، ووضعوه في يدِه ، وصاحوا بأصواتٍ منكرة :

« تعالَ ! .. قُدْنا .. إنّنا واثِقُونَ من النّصر ! .. هيّا ، سِرْ ، أيها البطلُ الهُمام ! »

قال الحاكمُ المسكين :

— « وكيف تريدون مني أن أسيرَ ، وأنا لا أستطيعُ تحريكَ ساقيَّ من شدة ما ضغَطتُم علي بهذَيْن اللوحيْن اللذَيْن يُزهقانِ مني الأنفاسَ ؟ ! »

— « أيها السيّدُ الحاكمُ ! لا شيءَ يوقِفُ الرجالَ الشجعان ! .. هيا ! »

إزاءَ هذا التحميسِ أرادَ سانشو أن يتحركَ ، ولكنّه ما إن خطا أولَ خُطوةٍ ، حتى فقَدَ توازُنَه

وانقلبَ على الأرضِ ، حيثُ بقيَ كسُلحفاةٍ مدفونةٍ في بيتها ، أو مركبٍ ملقىً على الرمال . وبدون أدنى رحمة تجاهلَه أولئكَ المازِحون الثّقلاءُ ، ثم أطفأوا مشاعلَهُم ، وضاعفوا الصياحَ والضجيجَ ، وجعلوا يرُوحونَ ويَجيئون ، ويندفعون نحو بعضهم ، ويضربون على التروسِ بالسّيوف .

وكان سانشو يرتعدُ لدى كل ضرْبَةٍ ، وينكمشُ بين الترْسَيْن . وقد تزايدتْ آلامهُ ، عندما بدَا لأحدِ هؤلاءِ المحارِبين أن يَصْعَدَ فوق جسَدِ الحاكمِ المسكين ، ويأخذَ في الصياح : « سيروا من هنا ! .. الأعداءُ مُقْبلون من هناك ! .. إجرُوا سريعاً من هذهِ النّاحية !... أقيموا المتاريسَ في الشوارع ! تشجّعوا ! .. كل شيءٍ على ما يُرام ! »

في الوقتِ نفسِه سُمِعَتْ صيحاتٌ تقول :

« إنتصرْنا ! .. إنتصرْنا ! .. لقد هرَبوا ! .. إنهضْ أيها السيّد الحاكم ! .. قم ، تمتّعْ بالنّصر ! .. تعالَ نقْتَسِمُ الأسلابَ الذي نِلْنَاها بقوةِ ساعِدِك الذي لا يُقْهَر ! »

قال سانشو بصوت ضعيف :

— « إذا كنتمْ تُريدون مني أن أقِفَ ، فعليْكُم أولاً أنْ ترفعوني ! »

فأوقفوه على قدميه ، فاستطرد يقول :

— « لقد سررت بهزيمة الأعداء ! إنني لم أصبهم بأذى يذكر، وأنا متنازل عن حصتي في الأسلاب ، لقاء كأس صغيرة من النبيذ إن كان بينكم من يتكرم علي بها » .

فجروا يحملون إليه النبيذ ، وفكوا عنه الترس ، وحملوه إلى سريره ، والعرق يتصبب من جسده ، ومضت فترة طويلة قبل أن يستعيد هدوءه . ولما وجد شيئاً من القوة سألهم عن الوقت ، فقالوا إن الفجر قد اقترب . فنهض دون كلام ، وارتدى ملابسه بتمهل وصمت ، ثم سار نحو الإسطبل ، ووراءه البلاط بكامله . وهناك أقبل على حماره ، وأخذ رأسه بين يديه ، وقال ، وهو ينظر إليه بعينين مليئتين بالدموع :

« أيها الصديق! يا رفيقي القديم ، يا من لم يشتك قط من مقاسمتي البؤس ! عندما كنت لا أفكر إلا في إطعامك وإصلاح برذعتك كانت ساعاتي وأيامي وسنواتي مفعمة بالسعادة . ومن يوم أن حل الغرور والطمع والزهو الأحمق مكانك في قلبي لم أشعر بغير المتاعب والأحزان والآلام الممضة ! »

قال هذه الكلمات ، وذهب إلى حيث كانت

البرذعة ، وعاد بها ، دون أن يرفع نظره إلى أحد ، ووضعها فوق الحمار وربطها ثم ركب عليها ، ومضى ، قاصداً إلى قصر الدوق .

عندما وصل إلى القصر ، الذي لم يكن بعيداً ، تجمع حوله أهل القصر ، فتوجه نحو الدوق والدوقة وركع أمامهما ، ثم قال للدوق :

« يا صاحب السعادة ! لقد منحتني ، دون استحقاق ، حكم جزيرة باراتاريا ، فنهضت بهذه المسؤولية على قدر الإمكان . وخرجت من الجزيرة كما دخلتها ، وليس في حوزتي سوى حماري ! .. وها هو ، يا سيدتي الدوقة ، الحاكم الذي وليتموه ، يعود عند قدميك ويقبلهما ، ويعود خاصة عن فكرة أنه ينفع في الحكم .. إنني لم أعد أريده ، فشكراً لكم ! .. إنني أضع نفسي ، مرة أخرى ، في خدمة سيدي ، الذي أجد ، في جانبه أحياناً ، بعض المتاعب الصغيرة العابرة ، ولكنني أجد ، على الأقل ، الغبطة والخبز والصداقة ! »

كان ذلك هو الخطاب الذي ألقاه سانشو ، وصفق له دون كيشوت . فعانقه الدوق بعطف . وأرادت الدوقة أيضاً أن تقبله ، وأصدرت أوامرها إلى رئيس خدمها بأن يقدم إليه العناية التي تنسيه ما تحمله من مضايقات .

٦ . مغامرة عظيمة ومحزنة

قرر بطلُنا ، الذي كان فرِحاً ، بينه وبين نفسه ، المعوقة تابعِهِ ، ألا يؤجّلَ عودتَه إلى البراري والآكام . وكان طالما لامَ نفسَه على إضاعةِ الوقتِ في أحضان الترَف بَدَلَ أن يَصْرِفَه في بناءِ المجد . لهذا توجّهَ إلى الدوق والدوقة ليستأذِنَهما في الرّحيل ، وحدّدَ صباحَ اليومِ التالي موعداً للسّفر . فأعربَا له عن أسَفِهما الشديد لذَهابه . وودعتْ الدوقةُ سانشو وَداعاً رقيقاً ، وطلبتْ إليهِ أن يتوجّهَ إليها إن احتاجَ لأيّ خِدمة ، وتمنّتْ لفارسِ المانش مجداً باذِخاً وسعادةً واسعة .

في اليوم التالي ظَهرَ دون كيشوت في ساحةِ القصرِ مُكْتَسياً بالسلاح ، منتصباً فوقَ روسينانت . وكان تابعُهُ إلى جانبه ، وقد علا حمارَه ، وبدتْ على وجههِ أماراتُ الرّضا . ولم يكنْ هذا الشعورُ بالرضا دونَ مُبرّر . فلقد جاءَهُ وكيلُ الأملاك ، في السِرّ ، حاملاً إليه ، من قِبَلِ الدوقة ، كيساً فيه مئتا ريالٍ ذهبيّ ...

وكان جميعُ سكّان القصرِ في الشّرُفات والنوافذ يلوّحون للبَطَلَين ، ويحيّونهما . ووجّهَ دون كيشوت تحيّةً ودّيّةً إلى مُضيفيه ، ثم لوى عِنانَ فرسه ، وسار في سبيله ، وعلى أثَرِه تابعُهُ الأمين .

وقُرب الغُروبِ أشرفَ المسافران على البحر . وفجأةً ظَهرَ لأعيُنِهما ، عند الشاطئ ، فارسٌ شاكي السّلاح ، يمتطي صَهْوَةَ جوادٍ رائع ، ويغطي وجْهَهُ بقناعِه ، وعلى مِجنّهِ (تُرسِهِ) العريضِ يظهرُ قَمَرٌ يُعشي الأبصار ببريقِه .

وأقبل هذا الفارسُ المجهولُ عَدْواً نحو دون كيشوت ، ووقفَ أمامه ، ثم خاطَبَهُ بصوتٍ مرتفعٍ وكبرياء ، قائلاً :

« أيها المحاربَ العظيمُ ! إن أمامَك فارس « القمر الأبيض » . ولا بُدّ أن شُهرتي قد وصلتْ إليك من زمنٍ بعيد ، وعرفت هذا الاسمَ الطنّان . لقد أتيتُ إليك متحدّياً .. فأنا أطلبُ إليك الاعترافَ بأن سيدةَ قلبي تفوقُ دولسينتك الشهرةَ جاذبيّةً وملاحةً ، فإن قَبِلْتَ بذلك ، جنّبْتني مؤونةَ قِتالك والتغلبِ عليك ، والندمَ على قَتْلك ، وإن دفعك سوءُ حظّكَ إلى القتال ، فهاك استمعْ إلى شروطِ المعركة : إن تغلّبْتُ عليك فإني أشْرُطُ عليك أن تعود إلى دارِك ، حيث يجب أن تظلّ عاماً كاملاً لا تحملُ خلالَه السّلاحَ ، وإذا كنتَ أنت الغالبَ ، تنازلتُ لك عن أسلحتي وجوادي ، ووضعتُ بين يديكَ مجدي وحياتي ! .. قرّرْ بسرعة ، فليس أمامَك سوى هذا اليوم ! »

فأجابه دون كيشوت ، الذي استبدّ به الغضبُ من تلك

اللهجةِ المتعالية ، بقدْرِ ما استولى عليه الدهَشُ لهذه المفاجأة :

« أيْ فارسَ القمرِ الأبيض ! إنك لم ترَ قطّ دولسينه . ولو تسنّى لك أن تراها مرّةً لعلمتَ أن لا حسناءَ يمكن أن تُقَارَنَ بها . إنني أرْثي لك لوقوعِكَ في هذا الخطأ الجُنوني . ولكنّني موافقٌ على شروطِك ، ولا أرفض سوى تنازُلكَ عن مجدِك ، لأن شُهْرَتك لم تصل إلى مسامعي ، بينما شُهرتي لا تحتاجُ إلى دليل . فلْنُسْرِعْ إذنْ لاستغلالِ هذا اليوم الذي جعلتَهُ مُهلةً لي ! .. وسّعِ المجال ، وخُذْ رمحك ، ولنبدأ المبارَزَةَ على الفور ! » .

وما هي إلا لحظاتٍ حتى انقضّا على بعضِهما . وكان جوادُ الفارسِ المجهول أكبرَ وأقوى من روسينانت الهزيلِ المسكين ، ولهذا سَيْطَرَ على الميدان ، وانطلقَ كالصاعقة بفارسه ، الذي قذفَ بدون كيشوت وفرسه مسافةَ عشرين متراً ، وألقاهما على الرمال .

وفي الحال خفّ الفارسُ المجهول ، الذي لم يستخدمْ رُمْحَه حتى تلك اللحظةِ ، إلى وضعِ رأس الرّمحِ عند قِناعِ دون كيشوت وقال له :

« عجّلْ بإعلانِ الاعترافِ الذي طلبتُهُ منك ، أو تَفْقِدَ حياتَك ! »

فجمع دون كيشوت المسكينُ ، الذي كان على وشك



نهاية دون كيشوت

الاغماء ، ما تبقّى من القوّة ليقول لخصمه المنتصر :

« إن صبية فارس دولسينه ، أو ضعفه ، لا يمنعان أن تكون أجمل نساء العالمين ! عجّل في استلال روحي ، فإن الموت نعمة لمن فقد الكرامة والشرف ! »

فأجاب الفارس المجهول قائلاً :

« لا قدّر الله أن أقدم على قتل أنبل وأخلص المحبّين ! ليظلّ جمال دولسينه وعزّها خالدين وافرين ! إن غالبك نفسه يحيّيها . ولكن الشيء الوحيد الذي أتمسّك به هو أن ينفّذ دون كيشوت العظيم شروط المعركة بالامتناع عن حمل السلاح طوال عام كامل . ويعود إلى منزله ! »

فأجاب البطل المغلوب :

« أقسم لك على ذلك ، واعطيك عهدي ، ما دام هذا القسم لا يمس شرف دولسينه ! »

فما إن سمع الفارس المجهول هذه الكلمات حتى همز حصانه ، منطلقاً نحو المدينة . ولم يكن ذلك الفارس سوى شمشون كاراسكو ، الذي ثأر لنفسه ، من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، أدّى المهمة ، التي كلّف بها ، خير الأداء .

٧ . عودة دون كيشوت الى منزله

بعد يومين وصل البطلان إلى رابية أشرفا منها على قريتهما . وأمام هذا المشهد نزل سانشو عن ظهر حماره ، وهتف :

« أي وطني العزيز ! هناك ابنك البار يعود إليك ، وهو يحمل ، لا المال الوفير ، بل التجربة الصالحة ! .. فخذه في صدرك ، هو وسيده البطل المغوار ، دون كيشوت الذي ، وإن عاد مغلوباً ، يمنحك مع ذلك ، الرفعة والشرف ! »

فطلب دون كيشوت من تابعه أن ينهض ، ثم سار الإثنان ، حتى دخلا القرية . وكان أول من صادفاه الكاهن والشاب كاراسكو ، اللذان خرجا للنزهة . وما إن رأى هذان الأخيران صديقهما حتى أقبلا عليه مفتوحي الأذرع . فترجّل دون كيشوت ، وضمّهما إلى صدره ، وأمسك ذراع كل منهما بيد ، وساروا جميعاً نحو المنزل ، ووراءهما مجموعة من الأطفال ، تصيح بفرح :

« ها هو السيد دون كيشوت ! ها هو سانشو الطيب ! »

وخرجت خادمة دون كيشوت وابنة أخيه للقائه ، فأظهرتا من الفرح ما أثر أعمق التأثير في البطل العائد . وسرعان ما روى لهما كيف غلب في المعركة وكيف أقسم

على عدم حمل السلاح طيلة عام. وبذل الشاب والكاهن ما في وسعهما لكي يخففا عنه، ولكن الاكتئاب ظل، مع ذلك، مرتسماً في قسمات وجهه.

ومرت عدة أيام ودون كيشوت على هذه الحال. كان يبدو، في صمته الطويل، أنه لا يهتم لأي شيء. وقد فقد شهيته للطعام، ولازمه الأرق في لياليه. ودون أن يفقد هدوءه ودون أن يشكو من أي شيء، كان ينشد العزلة والوحدة، ويقضي أيامه حالماً متأملاً: مخفياً، بكل حذر، تلك الدموع التي كثيراً ما كانت تبلل أطراف أجفانه. وكان الإنسان الوحيد، الذي يؤدي وجوده إلى ظهور ابتسامة خفيفة على شفتيه، هو سانشو، ولكن تلك الابتسامة كانت هي الرد الوحيد كذلك على كل فكاهات التابع ومباسطاته.

وبعد ذلك بزمن قصير أصيب بحمى، سواء بسبب ما كان يعانيه من الحزن والألم أو لأن ساعته قد اقتربت، فلازم الفراش.

طيلة أيام مرضه لم يتركه أصدقاؤه: الكاهن والمعلم نيقولا وكاراسكو. أما سانشو الطيب، الذي كان يستولي عليه الحزن والقلق، فقد ظل بجانبه لا يغادر حجرته. وقد جاؤوه بطبيب، فقال إن سبب مرضه الوحيد هو الكآبة. فضاعف سانشو جهده

لتسليته، رغم الألم الذي كان هو نفسه فريسة له. ولكن المريض كان يستمع إليه، وينظر إليه، ويجعله يفهم أنه عارف بمقصده.

ولكن المرض اشتد بعد ذلك. ولم تمض عشرة أيام حتى أعلن الطبيب أن لا أمل في شفائه. وكان دون كيشوت يشعر بحالته تماماً. فطلب أن يتركوه وحده لأنه يريد أن ينام. وقد دام هذا النوم سبع ساعات. وكانت خادمته وابنة أخيه تبكيانه في الخارج، على أساس أنه قد مات وانتهى، عندما أفاق فجأة ودعاهما إليه. قال لهما:

« إحمدا الله القدير، يا بنتي العزيزتين، الذي منحني اليوم، برحمته الواسعة، أكبر منحة في الوجود. »

قالت ابنة أخيه:

« ماذا تريد سيادتك أن تقول، يا عمي العزيز؟ »

— « تلك المنحة، يا ابنة أخي، هي الخير الأسمى، الذي يستطيع وحده أن يهب الإنسان بعض الراحة في هذه الحياة البئيسة.. هذا الخير العظيم هو العقل. فلقد أضعت عقلي، يا ابنة أخي، بإضاعتي أوقات الفراغ الطويلة في قراءات سخيفة. وقد أعاد الله اليوم عقلي إلي، ولكنني لن أتمتع به طويلاً. وأنا أريد أن أستغل على الأقل، هذا الوقت القصير الباقي، وهو

الوحيدُ الذي أعدّه من عُمري ، لأصلح قَدْرَ الإمكانِ أخطاءَ زَمَنِ الضَّياع ، وأحقّقَ الخيرَ الذي فاتني . فأرجوكما إذن أن تدعوا لي صديقي الكاهنَ المحترم والطالبَ شمشون والمعلّمَ نيقولا وسانشو المخلصَ الذي عليّ أن أطلبَ منه الصفحَ ، لأني شركتُهُ في جنوني ! »

وما إن انتهى من كلامِه ، حتى أقبلَ الأصدقاءُ الأربعةُ دون دَعوةٍ ، فوجّه خطابَه إليهم قائلاً :

« لقد طلبتُ رُؤْيتَكُمْ ، أيها الأصدقاءُ ، لأنّني محتاجٌ إليكم . هنّئوني على أني لم أعُدْ دون كيشوت دي لامانش . إنني دون ألونزو كيكسادا ، الذي كانوا يلقّبونني « بالطيّب » . أرجو ألا تَرَوْا فيّ ، منذُ اللحظةِ ، مقلّد أماديس وغالاور وأولئك الأبطال الخياليّين ، الذين حمّلَني الانحرافُ على اتّخاذهِم نماذجَ ومُثُلاً عليا .. لا تَرَوْا فيّ سوى الجارِ والصّديقِ المخلص والأخِ المحبّ ، الذي فَقَدَ العقلَ زماناً طويلاً ، واستعادَهُ في ساعتهِ الأخيرةِ ليَتوب . فلنَسْتَفِدْ ، يا سيّدي الكاهن ، من هذه الساعة .. أرجو أن تَستَمِعَ لاعترافي بما اقترفتُ من أخطاء . أما أنتم ، أيها السادةُ ، ففي هذا الوقتِ أرجو أن تأتوني بالكاتب العدلِ لتسجيلِ آخرِ رَغباتي» .

ولما جاءَ الكاتبُ العدلُ طلب منه أن يبدأ الوصيّة بالشكلِ المألوف. ثم جَمَعَ ما بقيَ له من قوّة، ونهض

جالساً في سريرِه ، وراحَ يملي عليهِ الكلامَ التالي ، بصوتٍ ضعيف :

« إنني أتركُ لصديقي سانشو بانسا ، الذي كنتُ أدعوه بتابعي في زمنِ الجنون ، مئتَيْ ريالٍ ذهباً ، تُقْتَطَعُ مما أتركه من أموال نقديّة . زيادةً على هذا أوصي وُرثائي بألا يُطالبوه بالمالِ الذي سلّمتُه إيّاه عندما خرجنا معاً ، ولا أندَمُ على شيءٍ ندَمي على أنني أمّلتُهُ بأن أحقّقَ له ثروةً كبيرة ... »

فقاطعه سانشو منتحِباً ، ومحاولاً مَنْعَ الكاتبِ العَدْلِ أن يمضي في التسجيل :

«كلا، يا سيدي ! .. كلا ! لن تموت ! .. ليس من الممكنِ أن تموت ! .. إسمعْ نصيحتي ، يا سيّدي الحبيب : عِشْ ودعْ عنك هذا الحزنَ ، الذي هو وحدَه المسؤولُ عن إيصالك إلى هذه الحالة التي أنتَ فيها ! .. أنا مستعدّ أن أعملَ كلّ ما تطلبُهُ مني .. مستعدّ أن أذهبَ معك إلى حيثُ تشاء ! .. وإذا كنتَ لا تستطيعُ أن تتعزّى عن أنك غُلِبْتَ ، فأنا أقول إن الخطأ كان خطأي أنا .. إنني على استعداد بأن أعلِنَ على رؤوسِ الأشهادِ وأن أقسم أنني لم أحزِمِ السَّرْجَ جيّداً على ظهرِ روسينانت ، وأن المسؤوليّةَ تقعُ على عاتقي ، وأن ... »

فقاطعه المريض بلطف قائلاً :

« إنني شاكرٌ لك عاطفتَكَ ، أيها العزيزُ سانشو . فالواقع أنك رأيتَني مجنوناً خلال فترةٍ طويلة حتى لم تعُدْ تستطيعُ أن تتصورَ أني استعدتُ عقلي . لِنَنْسَ هذه الأخطاءَ القديمة دون أن ننسى الصداقةَ التي بيننا . إن الذي يستمعُ إليك هو صديقُك ، ولكنه ليس هو دون كيشوت . دعني أكملُ وصيتي ، وتقبلْ اعتذاري عن أنني لم أعدْ أستطيعُ أن أفيدَك في شيء ! »

وأعلن أن وريثتَه هي ابنةُ أخيه ، أنطونين كيكسادا ، وأن عليها أن تتولى تعينَ مُرتَّبٍ خاصٍ لمربيتِه القديمة ، وأن تقدمَ بعض الهباتِ ، كتعبيرٍ عن صداقته ، إلى كاراسكو والمعلمِ نيقولا ، والكاهنِ المحترم ، الذي عيَّنَهُ منفذاً لوصيته .

ولما انتهى محرّرُ العقودِ من تسجيلاته ، رجا دون كيشوت صديقَه الكاهنَ أن يأتيَ بما يحتاجُ إليه لإجراءِ المراسمِ الدينية وإعطائه الأسرارَ الأخيرة . وفي مساءِ ذلكَ اليومِ أسلمَ دون كيشوت الروح .

وهكذا انتهى دون كيشوت دي لامانش ، الذي لم يشأ كاتبُ قصته أن يسميَ موطنَه الخاصَ ، ليكونَ لجميعِ المدُن والقرى والدساكر في اسبانيا شرفُ انتسابه إليها . وقد كُتبَتْ أشعارٌ كثيرةٌ لتُنقَشَ على قبرِه ،

ولكنْ لم يبقَ منها سوى هذه الأبياتِ التي نَظَمَها شمشون كاراسكو :

أيها العابر !
يَثْوي ههنا بطلٌ
فيه سماحٌ وإباءْ
كان من نُبْلِ السجايا مثلما كان من همٍّ
وعزمٍ
ومضاءْ
ولو ان الدهر لم يُلْقِ به
حَمِقاً بين الحِماقِ الظرفاءْ
لغدا
مما به من فِطْنَةٍ وسدادٍ
في صفوف الحكماءْ .

انتهى

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

- سلسلة كتب جديدة للمطالعة تلبي حاجة الفتيان والفتيات في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة .
- اشرف على تلخيصها عن روائع الادب العالمي نخبة من كبار الكتاب العرب .
- اخراج جديد .	لوحات بالالوان	تجليد فاخر .

صدر منها :

١ ـ روبنسون كروزو
٢ ـ كوخ العم توم
٣ ـ آخر ايام بومباي
٤ ـ جزيرة الكنز
٥ ـ البؤساء
٦ ـ دايفيد كوبرفيلد
٧ ـ حول العالم في ثمانين يوما
٨ ـ قصة مدينتين
٩ ـ أوليفر تويست
١٠ ـ الزنبقة السوداء
١١ ـ القلعه
١٢ ـ مرتفعات ويذرنغ
١٣ ـ الفرسان الثلاثة
١٤ ـ آيفنهو
١٥ ـ دون كيشوت
١٦ ـ بائعة الخبز
١٧ ـ احدب نوتردام
١٨ طفل من غير اسرة
١٩ كولومبا
٢٠ تمرّد على السفينة باونتي

دون كيشوت

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت